مجلة جامعة الملك سعود ، م١٢ ، العمارة والتخطيط ، ص ص ١ -٥٣ ، الرياض (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

عناصر البيئة المبنية كمصدر للصور الذهنية في القرى ومحيطها بمرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة العربية السعودية خلال مائة عام

محمد بن عبد الله بن صالح[1]

أستاذ، قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قُدم للنشر في ١٤١٩/٥/٧هـ؛ وقُبل للنشر في ١٤١٩/١١/١٣هـ)

ملخص البحث. تظل العمارة التقليدية في معظم الأقاليم ولدى معظم الشعوب مركز افتخار ومصدر استلهام وعنصر انتماء. تنبع أهميتها من أنها نتجت في التقويم الجماعي المستمر للإبداعات الفردية في تشكيل البيئة مع تحقيق المواءمة بين المتطلبات الثقافية والاجتماعية والروحية والظروف المناخية. تهتم هذه الدراسة بإبراز الصورة الذهنية لعناصر البيئة المبنية في القرى ومحيطها كتجارب متتابعة في واقع الحياة للسكان والزوار. فمن خلال العديد من الزيارات الميدانية للعديد من القرى ومحيطها بمرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة أمكن معرفة الكثير من عناصر البيئة المبنية للقرى ومحيطها ومن ثم تحليلها والخروج بوصف لأمثلة متكاملة من الصور للعناصر مفردة بعضها مع بعض ضمن علاقتها الملموسة والمدركة وردة الفعل السلوكي الناجم من إدراكها الحسي. يمكن اعتبار عناصر البيئة المبنية للقرى ومحيطها مصدرا متجددا للصور الذهنية التي يمكن الظهور بها عن المكان والزمان، وذلك ضمن المفهوم الحضاري الإسلامي والموروث الاجتماعي للمجتمع الحديث بالمملكة.

---

(١) يشغل في الوقت الحاضر عميد كلية العمارة والتخطيط.

تمثل الصورة الذهنية للعنصر نواة للصورة الذهنية للقرية والمدينة وللإقليم والتي مازالت قيد البحث والتنظير عند المخططين والمصممين الحضريين والمعماريين. وفي هذا البحث يتم طرحها بمفهوم نظري بحت في محاولة لإحياء هذا المفهوم وتطبيقه في التطويرات الحضرية الحديثة التي تشهدها قرى مرتفعات السروات وغيرها في أماكن متفرقة من المملكة.

إن دراسة وفهم العديد من عناصر البيئة المبنية للقرية ومحيطها في مرتفعات جنوب غرب المملكة العربية السعودية تنبع من وجود عناصر حضرية وطبيعية فذة. كما أن العلاقة التشكيلية والوظيفية التي توجدها مع محيطها الخارجي مؤثرة في سلوك وانتباه الناس، والتي يمكن أن تتحول إلى صورة ذهنية لذلك العنصر أو العناصر معا. من خلال البحث في هذه العناصر يمكن وضع الإطار النظري الذي سيبنى عليه تكوين الصور الذهنية في قرية مرتفعات السروات، وعلى مدى قرن في تاريخ القرية، وذلك بالبحث الميداني عن كنه هذه العناصر في الوضع الحالي للقرية، وعن طريق سبر أحاسيس الناس في الماضي تجاه هذه العناصر. ومن حسن التوفيق أنه قد تمت مقابلة كبار سن تزيد أعمارهم عن مائة عام.

فالإدراك الحسي لهذه العناصر يستشف أثناء التجوال مع الكثير من سكان القرية وإيماءاتهم نحو تلك العناصر قبل الوصول إليها وكذلك أثناء عرض صور ضوئية للقرية خلال الاستفسار من علية القوم (كبار الجماعة). بعد هذا التقصي يأتي تساؤل الباحث: هل يمكن وضع استراتيجية تخطيطية للأحياء الجديدة تنبع من التحليل الحسي لعناصر البيئة المبنية لعدد من القرى ومحيطها، في مرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة العربية السعودية ؟

تهتم هذه الورقة بتحديد وتوصيف العناصر بالبيئة المبنية للقرية ومحيطها والتي تعزز بناء الصورة الذهنية للقرية ومحيطها في مرتفعات جنوب غرب المملكة خلال مائة عام من واقع العناصر الحضرية الملموسة للبيئة المبنية ومحيطها الخارجي والتحولات التي تجرى عليها مع الزمن.

إن عملية استكشاف البعد الحسي لتلك العناصر ستسهم في تدعيم المعرفة في مجال العمارة والتصميم الحضري والتخطيط العمراني لفهم دور تلك العناصر كقوى مؤثرة في السلوك البيئي في الحضر أو الريف وأهمية معرفته في ترتيب وتنظيم البيئة المبنية بأسلوب يخدم الوظائف التي من أجلها أقيمت تلك العناصر، وذلك للمساعدة في بناء صور ذهنية متجددة ذات معان تؤثر على سلوك الإنسان وابتهاجه وإنتاجه. إن مقدرة هذه العناصر المبنية في إضفاء صور حسية لسكان هذه القرى لا يمكن تجاهله، بل ويمكن تدعيمه في التخطيط والتصميم المستقبلي للبيئة المبنية ومحيطها.

مقدمـــة

تزخر عمارة القرية التراثية ومحيطها بمرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة بعناصر عمرانية تضم أهم المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، وتعكس طبيعة تشكيلها الحضري والمعماري النمط الثقافي والحضاري الذي يميز سكان تلك المنطقة عن غيرها من مناطق المملكة.

فعناصر البيئة المبنية للقرية ومحيطها تمثل مجموعة من المفردات المعمارية التي تشكل في مجملها لغة معمارية موحدة، والتي تمت صياغتها تاريخيا طبقا لاعتبارات دينية وأمنية ومناخية، وتقنيات بناء متغيرة تبعاً لوظيفة ورمز كل عنصر وزمان وجوده.

ويمكن القول إن كل مجتمع يتميز بأنماط وسلوكيات اجتماعية نتيجة لتكيفه ضمن إطاره الاجتماعي والديني والبيئي، ولا تنفصل هذه السلوكيات عن الجوانب السياسية أو الأنشطة الاقتصادية، بل هي تتأثر بهما وتؤثر فيهما بشكل كبير [١].

ويمكن قول الكثير عن الذي يجب تعلمه من "أمثلة الماضي" لإيجاد الحلول للمشكلات البيئية الناجمة عن ضياع الهوية العمرانية وتشوه الصور الذهنية للقرية والريف.

يلاحظ أن الأنماط المعمارية والشكل العمراني اللذين تتميز بهما العمارة التقليدية للقرى والأرياف بمرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة - رغم كونها تلقائية - فإنها أصيلة تظهر فيها السمات والخصائص الإقليمية. في السابق وقبل انهيار الحدود الثقافية التي كانت تفصل بين الشعوب كانت صفة الصدق في التكوينات المعمارية تأتي بطريقة طبيعية حيث كانت تفاعلات ذكاء مختلف الأجناس والجماعات مباشرة مع بيئاتها [٢].

من هذا يمكن إلقاء الضوء على التطبيقات الواقعية والعفوية التي يلجأ إليها السكان المحليون من أجل تشخيص المكان بإضفاء معالم التفرد الشخصي والتعبير عن الانتماء في العمارة. وفي الغالب نرى ذلك مميزاً في المباني التقليدية ومحيطها ذات البنية المتلاحمة [٣].

إن الدراسات حول الصور الذهنية للقرى ومحيطها بمرتفعات السروات قليلة جدا، ولذلك فإن من شأن هذا البحث أن يساعد في تسليط الضوء على كثير من الجوانب

المتحركة والساكنة في البيئة المبنية. كما من شأن هذا البحث أن يساعد المخططين والمعماريين وصناع القرار التنموي في بناء بيئة عمرانية ذات معانٍ أكثر عمقا مما هو الحال عليه الآن.

مفهوم الصورة الذهنية

يمكن أن تعدّ عناصر البيئة المبنية مصدرا للصورة الذهنية في ظل الأسماء والنعوت التي عبّر بها الإنسان عن الأماكن والمباني. فالعناصر بأسمائها ونعوتها عبارة عن حقائق مختلفة تعبر عن الشكل والنشاط كوسائل اتصال مع المحيط الذي يعيش فيه الإنسان. وفي كثير من الأحيان يكون للإنسان صلة مباشرة بتلك الأسماء من خلال نمط السلوك الذي يؤدى في تلك العناصر أو شكلها الهندسي المطلق، وهو ما يجعله قادرا على مواصلة التفاعل مع الأنماط المعمارية كوسائل اتصالية من خلال إحساسه المباشر بطبيعتها. يتلقى الإنسان من عناصر البيئة المبنية ومحيطها معلومات مباشرة من خلال إحساسه المباشر بها باستخدام حواسه البصرية والسمعية والذوقية (الشم والطعم). وترتبط الصورة الذهنية بحاسة بشرية وجدت مع الإنسان منذ بدايته، وذلك لأن البيئات الإنسانية العامة بيئات شديدة التعقيد، ويصعب الإلمام بكل أطرافها اتساقا مع محدودية قدرات وإمكانات الإنسان في إطار التفكير وتخزين المعلومات [٤].

ولكي يستطيع الإنسان أن يتغلب على شدة التعقيد لابد أن تكون له تصورات عن كل أجزاء تلك البيئة، بمعنى وضع تصور ذهني تقريبي لواقع البيئة الأصلي يستطيع من خلاله أن يفهم الواقع ويحدد موقفه منه. ومن هنا سعى الإنسان إلى تصنيف الناس والأشياء في هذا الإطار إلى مجموعات معينة ومدركات يتصرف معها كمجموعات تتصف بخصائص مميزة. يمكن القول إن هناك سمة مميزة للإنسان في كل مكان، وهي الرغبة في أن يعيش في عالم منظم يمكن فيه الربط بين الخبرات الجديدة وبين ما سبق معرفته من قبل. فعندما يصادف أحد الأفراد شيئا جديدا أو غريبا أو مختلفا، فإن أسهل الطرق للتعامل معه هو أن يعطيه المعنى الذي يجعله يستجيب إليه برد فعل تعلمه من قبل، ويحقق له شعورا مسبقا بالراحة [٥].

وتختلف الصور الذهنية التي يكونها الأفراد عن الناس والأشياء من حولهم مهما توحدت البيئات، وذلك تبعاً لعدة عوامل ترتبط بالأفراد من جهة، وبالجماعات من جهة أخرى. فالعوامل الشخصية تؤثر في إدراك الصور الذهنية. ولأن هذه الصور تعمل على تحقيق التكيف النفسي للإنسان مع بيئته ومع من حوله من خلال تنظيم خبراته المعقدة تنظيما يستطيع الإنسان من خلاله الإفادة من تجاربه السابقة بالوضعية التي تكفل له التعامل مع كل من حوله بطريقة ميسورة.

كما أن الصورة الذهنية المكونة لا تعبر عن جزء واحد من أجزاء الأشياء المراد تكوين الصور عنها، وإنما تدل تلك الصورة على كل الصفات الثابتة أو الحركية ذات الدلالات، والمتمثلة في الأشياء ذاتها وبالنشاط الذي يؤدى من خلالها.

عناصر البنية الشكلية والأبعاد للصور الذهنية

تنبع أهمية العلاقة بين عناصر البنية الشكلية في القرى ومحيطها والصور الذهنية من خلال دور هذه العناصر في صنع الصورة وانتشارها، إضافة إلي دورها في عكس هذه الصورة داخل المجتمع. إن الصورة الذهنية تصبح أكثر عمقا من خلال دراسة تحليل مضمون عناصر البنية الشكلية في القرى ومحيطها على عكس دراستها من خلال تصورات الأفراد. وتستمد الصور الذهنية أهميتها في المقام الأول من خلال إسهامها بشكل مباشر في القرارات التي يتخذها الناس تجاه الأحداث والأشياء كما تؤثر في طبيعة واتجاهات علاقات الناس بعضهم ببعض. ولذلك تمر الصورة الذهنية قبل تكوينها ببعدين أساسين هما: المعرفة والإدارك، ثم تعقب ببعد ثالث يتلو الصورة يتمثل في الاستجابات السلوكية المبنية على الصورة وهو ما يمكن تسميته البعد السلوكي [٦].

البعد المعرفي

وهو البعد الذي يعرف من خلاله الفرد المعلومات عن عناصر البيئة المبنية من حوله، دون أن يكون لهذه المعلومات دلالات أو معان، وذلك من خلال عمليات الاتصال

أنماطها المختلفة. باستخدام الحواس الإنسانية، ومن خلال هذه العمليات الاتصالية يتطور المعني داخل الإنسان، وهو المعنى المرتبط بالمعلومات المجردة التي استقاها الإنسان عن العالم من حوله ويتطور المعنى ويثبت في نطاق الحدود التي تفرضها الاتجاهات والدوافع التي ثبت نجاحها في الماضي والاحتياجات والدوافع الراهنة. ويمكن أن يتلقى الإنسان المعلومات في شكل رموز أو علامات أو أشياء مجسدة تعمل بمثابة المنبه [٧].

إن المعرفة تمثل المدخل بالنسبة للعملية الاتصالية التي لا تكتفي بأن يعرف الإنسان موضعا معينا، وإنما تشمل أبعادا أخرى تتمثل في تحليل وتفسير الرموز التي قدمت المعلومات بها، ثم الاستجابة لها على نحو معين.

البعد الإدراكي

وهو البعد الذي يقوم الفرد بمقتضاه بتناول ومعالجة المعلومات وتقويم المحفزات الخارجية التي ترد إليه من خلال الحواس، كما يحدد طريقة استجابته لهذه المحفزات.

ويمثل هذا البعد أهمية أساسية في تكوين وتشكيل الصور الذهنية، ذلك لأن الإنسان يعتمد على ما يمتلكه من قدرات عقلية في إدراك المعلومات والمعارف التي يتلقاها طوال حياته، والتي تسهم في تشكيل صوره الذهنية وفقا لعدة معايير، ومن خلال تفاعل ثلاثة عناصر: أولها العنصر البنائي المتمثل بعناصر البيئة المبنية الملموسة الذي يستمد تأثيره على كيفية الإدراك من خلال طبيعة المثير المراد إدراكه، ومدى ما يثيره في الجهاز العصبي للإنسان من معان وأفكار. العنصر الثاني هو العنصر الوظيفي وهو المتمثل في مدى ما يملكه الفرد من مخزون من التجارب السابقة إضافة إلي احتياجاته ودوافعه. العنصر الثالث هو العنصر الثقافي، وهو ذلك الرافد الذي يسهم دائما في إمداد أفراد المجتمع بمعانٍ وأفكار ومسميات للأشياء، انطلاقا مما يربط ذلك المجتمع من روابط فكرية أو اجتماعية محددة تسهم في توحيد نظرته نحو الناس والأشياء. ومن خلال ذلك تمر عملية إدراك الصورة الذهنية بمرحلتين هما مرحلة الاختيار، وتعني اختيار بعض الأوصاف لأجزاء من العنصر

البنائي دون بقية الأوصاف وفقا للعناصر الثلاثة الماضية. والمرحلة الثانية مرحلة التسكين، التي تعني وضع الصورة التي اختيرت في مواضعها في إطار الخبرات السابقة.

البعد السلوكي

يعقب تكون الصورة الذهنية استجابة معينة ترتبط بنوعية الصورة المكونة، ويعبر عنها بالتقبل وهو ما يسمى بالسلوك. وهو إما أن يكون بالتغير الملموس أو التحول النفسي. وتعتمد الطريقة التي يتصرف بها الإنسان عند إدراكه للعناصر البنائية على مدى ما يحمله من صور ذهنية تجاهها و الناس الذين يستخدمونها.

طريقة البحث

اعتمد هذا البحث على القيام بأعمال مسح ميدانية لعناصر البيئة المبنية لعدد من القرى ومحيطها بمرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة. تم منه الحصول على تصورات السكان الذهنية حيال تلك العناصر كما يروونها عن طريق الوصف الشفهي لها أثناء مناقشتهم أو إيماءاتهم لها أثناء التجوال معهم في محيطهم. يأتي الاستفسار من عدد من سكان تلك القرى وسبر أحاسيسهم تجاه العديد من العناصر الحضرية في محيطهم الملموس التي تساعد في بناء صورة ذهنية للقرية والمحيط. ونتيجة لذلك يمكن بناء خطط بصرية لتعزيز هذا الدور.

تم خلال أعمال المسح والتقصي الوقوف على الكثير من العناصر الحضرية داخل وخارج القرى كعناصر عمرانية تساعد على التعرف على المكان كوسائل أدخلها مهرة البناء والملاك ومتخذو القرار للتعرف على البيئة المبنية والبيئة الخارجية أيضا. وقد أدى غياب هذا الحس في بيئتنا الحالية إلى التفكير في إيجاد حلول لتلك المشكلات الناجمة عن التعرف علي عناصر البيئة من خلال إعطائها صورا ذهنية مميزة.

فالخطة البحثية لاستكشاف وتعزيز الصورة الذهنية للقرية يمكن إيجازها على النحو التالي:

المرحلة الأولى: مرحلة التحليل الابتدائي للنسيج العام للبيئة المبنية أو المخططة. ويتم ها تحديد شكل النسيج وتحليل نقاط القوة والضعف بمقارنة نتائج الاستكشاف الحقلي أولي للتكوين البصري من خلال المشاهد المدرب الذي تم اصطحابه والتجوال معه داخل خارج القرية. كما أنه تم عرض مجموعة من الشرائح للعديد من عناصر البيئة المبنية لعدد ن القرى ومحيطها على مجموعة منتقاة من أساتذة وطلبة كلية العمارة والتخطيط بجامعة لك سعود، وعدد من المعماريين والمخططين ومنتخب أيضا من سكان تلك القرى بغرض ستطلاع التصور الذهني العام، ثم التعرف على العناصر الحضرية التي تثير انتباه المشاهد ندور حول الصورة الذهنية لعناصر البيئة المبنية للقرية ومحيطها الخارجي.

المرحلة الثانية: تم فيها أخذ عينتين من السكان. العينة الأولى قامت بزيارة القرية أثناء وال الباحث بالقرية. ومن خلال نعت هذه العناصر والإيماءات لها أثناء التجوال أمكن رفة البعد الحسي لتلك العناصر. والعينة الثانية من السكان تمت مناقشتهم حول أهم ناصر التي تم اختيارها من الدراسة الأولية وقد قاموا بالتعبير عن تصوراتهم الذهنية فهيا، وبتخيل الصورة الذهنية لتلك العناصر برسم اسكتشات لهذه العناصر لسبر احاسيسهم وذكرياتهم عنها، ومنها تصوراتهم الذهنية وأحاسيسهم.

وبعد ذلك بدئ في التعرف على رأي السكان حول أهم العناصر البصرية التي سخ في أذهانهم والمشكلات التي يواجهها المرء من جراء تغير الصورة البصرية للمكان، خاصة أثناء التجوال مع البعض وعند المرور على قصبة متهدمة وآيلة للسقوط، أو عند رور على بئر استعيض عنه بآخر، وقصر مشيد هجره أهله، أو المرور على مبنى مسجد نى، أو أي عنصر تتراءى لي أهميته في خلق إحساس لدى السكان، ومن ثم يجرى تبادل آراء تجاه هذه العناصر كمعالم رئيسية في قريتهم وإحساسهم تجاهها. وفي هذه المرحلة ام الباحث بتشخيص وتحليل ودراسة العناصر والأجزاء والتكوين العام للتشكيل تحت ظروف المختلفة.

من هذا المنطلق تم القيام بعمل استكشاف أكثر دقة وتفصيلا لهذه العناصر، وعمل سح شامل لشخصية وطابع وتكوين كل جزء بمفرده تحت العديد من الظروف المختلفة ثل مسافة الرؤية، الحركة، زاوية النظر... إلخ.

المرحلة الثالثة: تمت فيها معالجة المعلومات والبيانات والدراسات السابقة وتجميعها في تقرير مكتوب يتضمن شرحا وافيا لكافة التفاصيل وإمكانات العناصر الحضرية المتاحة في إيجاد صورة ذهنية واضحة للعناصر المبنية في قرية ومحيطها.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة رسم السياسة البصرية (الخطة البصرية) لبناء الصور الذهنية للعناصر الجديدة بحيث تكون قابلة للتعديل والتطوير تبعا للمتغيرات المستقبلية.

آلية البحث

الآلية التي طبق بها البحث استعانت بالآليات التي كان كيفن لنتش (Kevin Lynch) يستخدمها عند دراسته للمناطق الحضرية، ورسم الصورة الذهنية لها [٧] من الممكن دراسة الصور الذهنية للقرى في جنوب غرب المملكة على ضوء أفكار نور بيرج شولتز (Norberg Shultz) حول مفهوم روح المكان (Genius Locci) [٨-١٠]. وعلى الرغم من أن أفكاره أنسب وأدق لدراسة الصور الذهنية، وذلك لما يشاهد من سيادة القصبات والحصون في عمارتها تجسيدا واضحا لها حول عمارة الجسم (Figurative architecture) التي ينادي بها، في حين أن أفكار لنتش قد تكون أنسب عند دراسة المناطق الحضرية أكثر من القرى، ولأن اهتمام البحث بعملية التحول التي تمر بها هذه القرى في المائة عام الأخيرة السبب المباشر في الاستعانة بأفكار كيفن لنتش.

عناصر محيط القرى كمصدر للصورة الذهنية

تقع مرتفعات السروات في مكان مهم من الجزء الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، (الأشكال أرقام ١، ٢) إذ كانت طريقا للمسافرين من الحجاز إلى اليمن، ومن أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية كثافة بالسكان. ويعود هذا إلى طبيعة جبالها وأوديتها وسهولها الخصبة. وكذلك إلى مناخها المعتدل وأمطارها الغزيرة، ومراعيها الخضراء [١١، ١٢]. وقد وصفها الله تبارك وتعالى في سورة سبأ بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ [الآية ١٨].

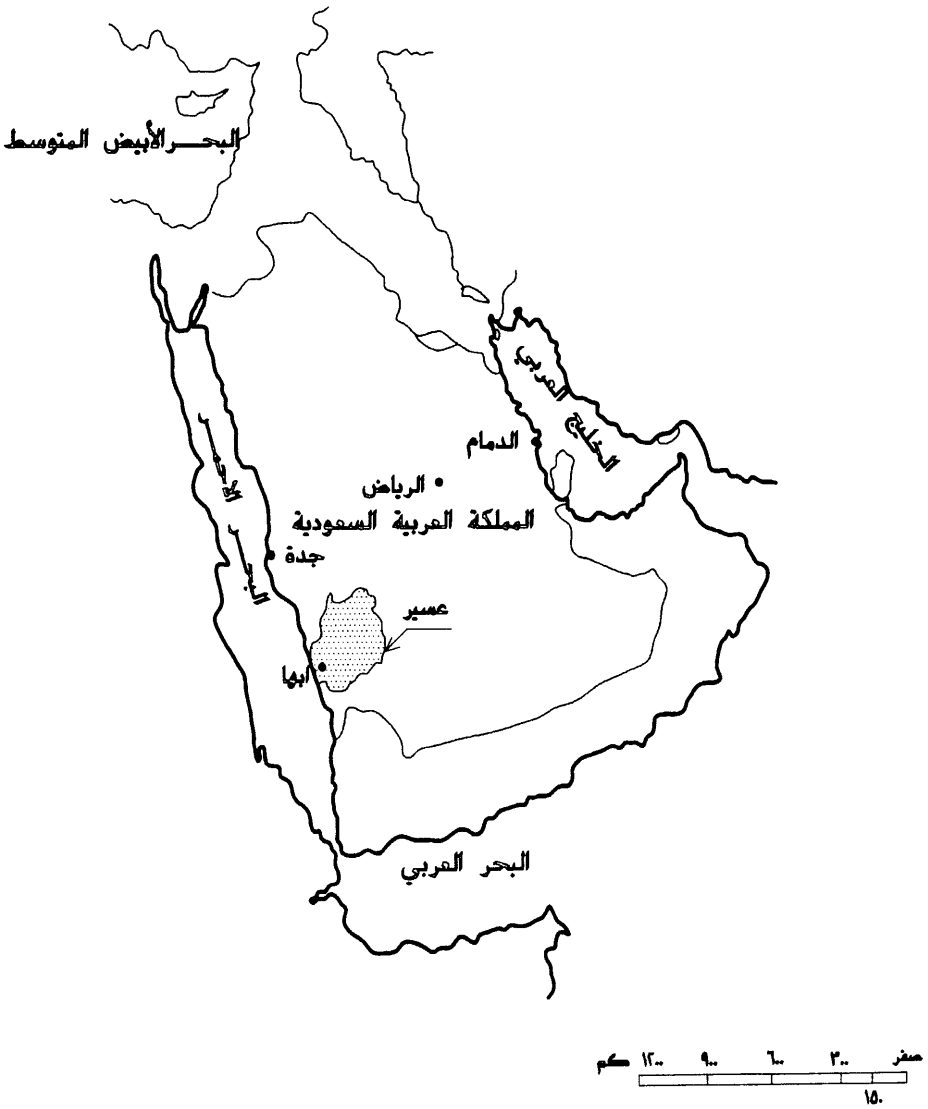

لشكل رقم (١). خريطة توضح موقع الدراسة بالنسبة للمملكة العربية السعودية.

الشكل رقم (٢). خريطة توضح قرى ومدن مرتفعات السروات والتقسيم الجغرافي لمناطق الدراسة.

فالسروات هي سلسلة الجبال التي تفصل بين المنحدرات الشرقية، باتجاه نجد، وتهامة الإصدار باتجاه البحر الأحمر، والتي يبلغ ارتفاع قممها أحيانا حوالي ٣١٥٠ م مثل: جبال تهلل، ومرتفعات السودة. وتشكل جبال السروات حاجزا طبيعيا تقف عنده الغيوم الكثيفة الناتجة عن التيارات الحارة الرطبة المتصاعدة من البحر الأحمر، ونتيجة لذلك تسقط الأمطار الغزيرة على قممها وسفوحها. كما تتميز هذه المنطقة باعتدال جوها حتى في فصل الصيف. وإلى جانب المدرجات الزراعية والأودية التي اتخذها السكان مستقرا لهم، توجد هنالك سفوح السراة التي تكسوها غابات العرعر، وأشجار السدر، والطلح، والسرو، والعتم (الزيتون البري) (الشكل رقم ٣).

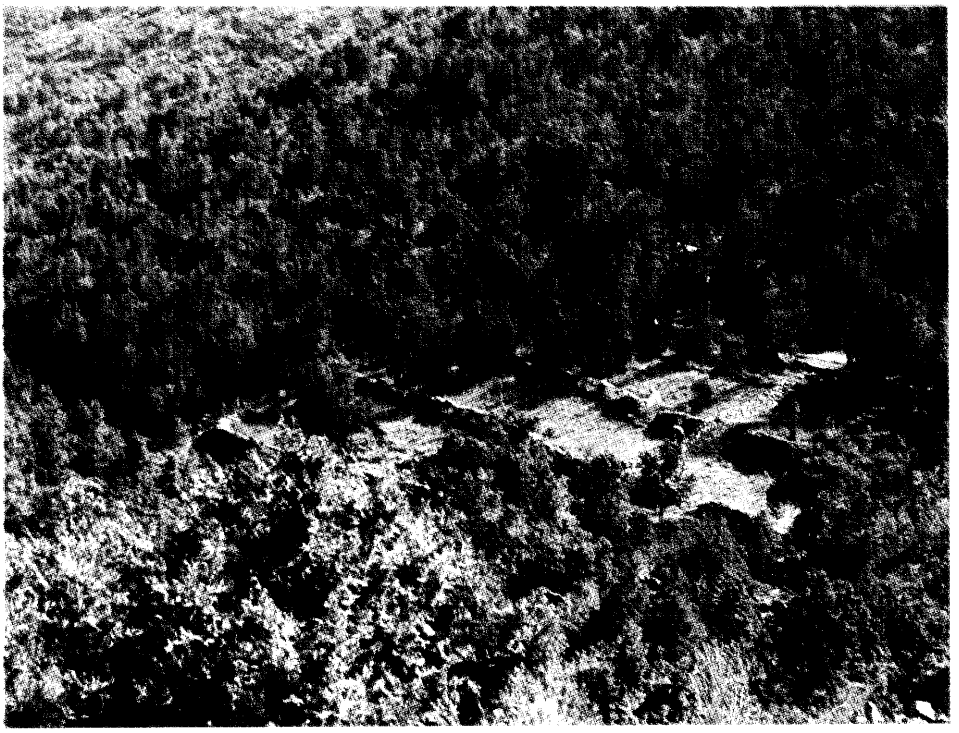

الشكل رقم (٣). تتميز بيئة جنوب غرب المملكة بغطاء نباتي ممثلا بالغابات وجنبات الأودية وأماكن الرعي والتي بدورها تعطي صور ذهنية عن بقية مناطق المملكة.

لابد أن نكون مدركين أن الزراعة تأتي في مقدمة النشاطات الاقتصادية للمنطقة، وأن منطقة مرتفعات السروات تمتلك موارد غذائية عديدة، ولكن هذه الموارد لا تستخدم الاستخدام الأفضل. فالمساحة المزروعة مساحة صغيرة بالنسبة للمساحات القابلة للزراعة (الشكل رقم ٤). وتقوم الزراعة أساسا على الأودية التي تنحدر من الجبال. وعلى جنبات هذه الوديان تقوم الزراعة بواسطة المدرجات، وهى طريقة ري الأراضي بواسطة الغمر عن طريق إقامة سدود ترابية كحواجز تعمل على تحويل جزء من مياه الجبل إلى المدرج قبل الوصول للوادي (الشكل رقم ٥).

الشكل رقم (٤). يشكل الحقل الزراعي بمروجه الخضراء وثيران الحرث والقصبات الدائرية لإنذار وتحذير المزارعين صورا ذهنية وبؤرا يستدل بها أهل القرى والغرباء للمكان.

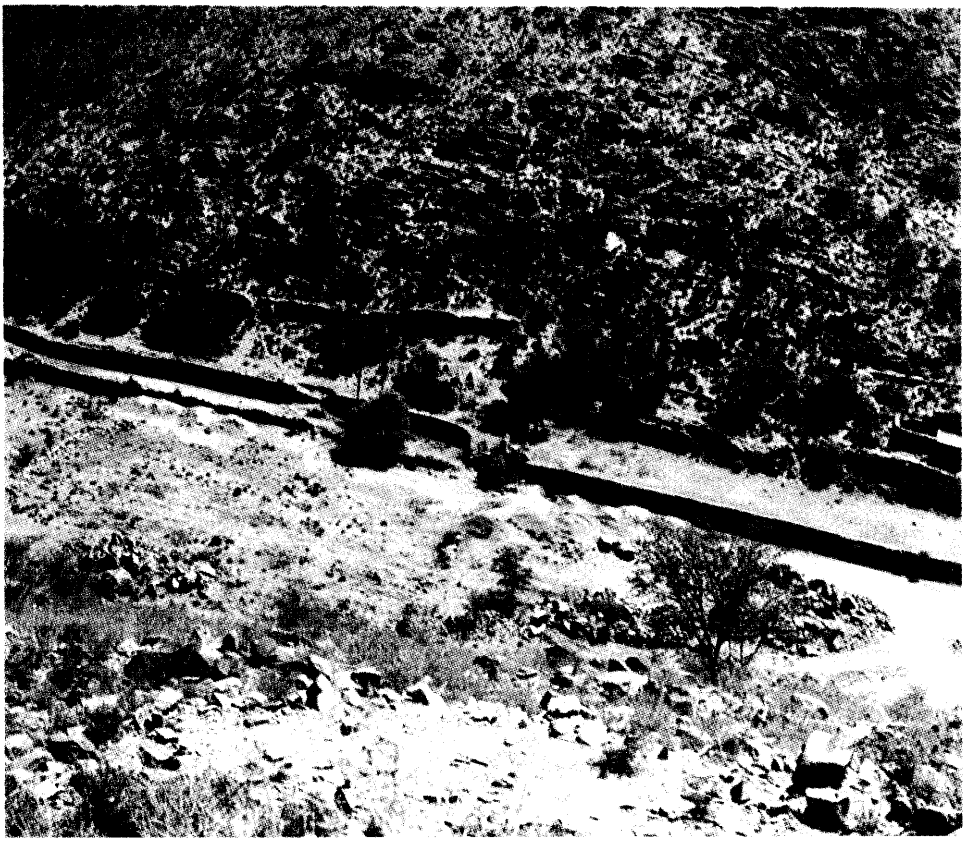

الشكل رقم (٥). تشكل حدود الملكيات للأراضي الزراعية في جنوب غرب المملكة جزءا من الصورة الذهنية والتي يمكن تمييزها سواء أثناء غمر المياه لأغراض الزراعة أو البناء الطبيعي للحدود.

وتمتاز جبال المنطقة بجمالها الساحر، ومدرجاتها الرائعة التي شكلها إنسان المنطقة عبر آلاف السنين مع تناسق عجيب مع طبيعتها الخلابة، وتسلسل مترابط عبر سلاسل الجبال الشاهقة، والتي تعتبر بحق إنجازا فريدا على المستوى العالمي يستحق الإعجاب، إذ لا يمكن تصور الجهد الذي شكل هذا الإنجاز الضخم ليحول سلسلة هائلة الضخامة من الجبال الشديدة الانحدار إلى مسطحات أفقية صالحة للزراعة والسكن، تربطها شبكة من الممرات والمعابر الأفقية والرأسية. يتراوح عرض المدرجات بين ٣ و١٠م تضيق وتتسع تبعا

لدرجة الانحدار، وعلى هذه المدرجات خلد إنسان هذه المنطقة حضارته المعمارية الأصيلة مستخدما ما جادت به بيئته من موارد طبيعية [١٣-١٦].

عناصر البيئة المبنية للقرى كمصدر للصورة الذهنية

من خلال زيارة العديد من القرى بمرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة (آل الخلف/بني بشر، وآل ينفع/شهران، والعكاس/عسير، والملد/غامد، وذي عين/زهران)، حدد الباحث مجموعة من العناصر للبيئة المبنية للقرية بحيث تشمل على سبيل المثال لا الحصر:

الحصون والقصبات

توجد في قرى مرتفعات السروات كثير من المباني العالية التي تسمى الواحدة منها حصنا أو قصبة ، وهي مبنية بالطين، أو الحجارة، أو كليهما. وقد صممت مداخلها تصميما محكما يجعل من الصعب اقتحامها. وكان الهدف من الحصن، أو القصبة السكن أو المراقبة والدفاع. ومن الحصون والقصبات ما كان يصلح لحفظ الحبوب وعلف الحيوانات (الشكل رقم ٦). وللحصن قاعدة مربعة أو مستطيلة، وهو أكبر مساحة وحجما من القصبة، ويقيم أصحابه فيه. أما القصبة فغالبا ما تبنى على المرتفعات، وتكون لها قاعدة دائرية إذا كانت خارج نطاق البيئة المبنية. أما سوى ذلك فتكون مربعة مرتبطة من ناحية التشكيل الفراغي مع بقية عناصر البيئة المبنية، وهي لا تتسع إلا لعدد قليل من الرجال يرابطون فيها فترة قصيرة للمراقبة، والدفاع. وكان أهل القرى، مثل سكان بلاد ما بين النهرين، يعمدون أحيانا إلى إشعال النار وإطلاق الدخان من أسطح تلك الحصون أو القصبات إيذانا بالخطر.

ويعنى أصحاب الحصون والقصبات بها عناية فائقة، ويحرصون على أن تكون قوية منيعة، بل جميلة كذلك، فيزينون أبوابها ومنافذها وأجزاء من واجهاتها بأحجار المرو، أو الرقف، كما يسمونها بأسماء جميلة مثل: "حصن بهجة" أو أسماء ذات دلالة كقصبة الرهوة التي تعني قصبة الحدود بين القرى.

شكل رقم (٦). تشكل الحصون في قرى شمال مرتفعات السروات والمبنية من الحجر ببواباتها ونوافذها الصغيرة والعالية وسقاطاتها العلوية ذات النحور الغاطسة التي يستخدموها السكان في رمي الأحجار أو الزيوت الحارة أو النيران على المعتدين جزءا من الصورة الذهنية عن المنطقة، كما تشكل القصبات الدائرية والمربعة بقرى وأرياف جنوب مرتفعات السروات والمبنية من الطين أو الحجر أو بهما معا نفس الصورة.

ومازال أصحاب الحصون يقيمون فيها أو بقربها، ويستخدمونها في أغراض أخرى حفظ مؤنهم ومتاعهم. وللحصون والقصبات نوافذ صغيرة للإضاءة والتهوية، تملأ الأعشاب الشائكة حتى لا تمر منها الطيور أو الحيوانات الصغيرة. وتحفظ الحبوب المخزونة ي الحصن أو القصبة عدة سنوات، إما بنشرها داخل غرف الخزن، أو بوضعها في أكياس صنع من القش.

وقد يملك الحصن أو القصبة شخص أو أسرة، وقد يكون ملكا لأهل القرية، وفي هذه الحالة تستعمل كل جماعة طابقا من البناء. وما زالت هذه الحصون والقصبات تثير الإعجاب والتقدير، وتعكس على مر الزمان تاريخ المنطقة ومآثر أهلها.

المساجد والمآذن

أنشئت المساجد في المنطقة واهتم الأهالي بإقامتها، كما حرصوا على بنائها وسط المجموعات السكنية أو قرب الأسواق، مما ييسّر على المسلمين الذهاب إليها (الشكل رقم ٧). ومن المعروف أن المسجد يتألف من مبنى مغلق مخصص للصلاة وفيه المحراب المستقبل لبيت الله الحرام في مكة المكرمة، وكذلك الفناء المفتوح والذي يطلق عليه اسم الصوح، وهو امتداد لصالة الصلاة المغلقة. وكثيرا ما يزخر بالمصلين أثناء الجمعة، وكذلك أثناء النهار في فصل الشتاء المشمس، وأثناء الليل في فصل الصيف. كما يتألف حرم المسجد من منزالة وهي غرفة لإيواء المسافرين، وربما وجدت في طرفه الآخر مدرسة لتعليم الصبيان. فالمدرسة تشغل أحد أركان المسجد، أو تكون في أحد الأروقة المجاورة للفناء المفتوح، أو في بناء منفصل، وفيها يدرس الطلاب القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وبعض العلوم الدينية واللغوية.

ومن المعروف أن مكان الوضوء يكون عادة في الركن المعاكس للقبلة وملتصق بالفناء، وعلى مقربة من بئر أو صهريج لجمع مياه الأمطار.ومن الملاحظ أن مساجد المنطقة القديمة قد بنيت بدون قباب وبدون مآذن، وزينت بما توافر من حجر، وطين، وخشب، وجص، مما يسهل من إدراكها عن بعد من قبل الغرباء والسكان. وهناك عدة نماذج للنقوش على أبواب المساجد ونوافذها وسقوفها وجدرانها [١٧-١٩].

والمساجد الجديدة تضم بجنباتها مئذنة وهي بناء دائري أو مربع الشكل يكون أعلى من بقية أقسام المسجد وملتصقا به، ومنه يرتفع صوت المؤذن داعيا إلى الصلاة في أوقاتها.

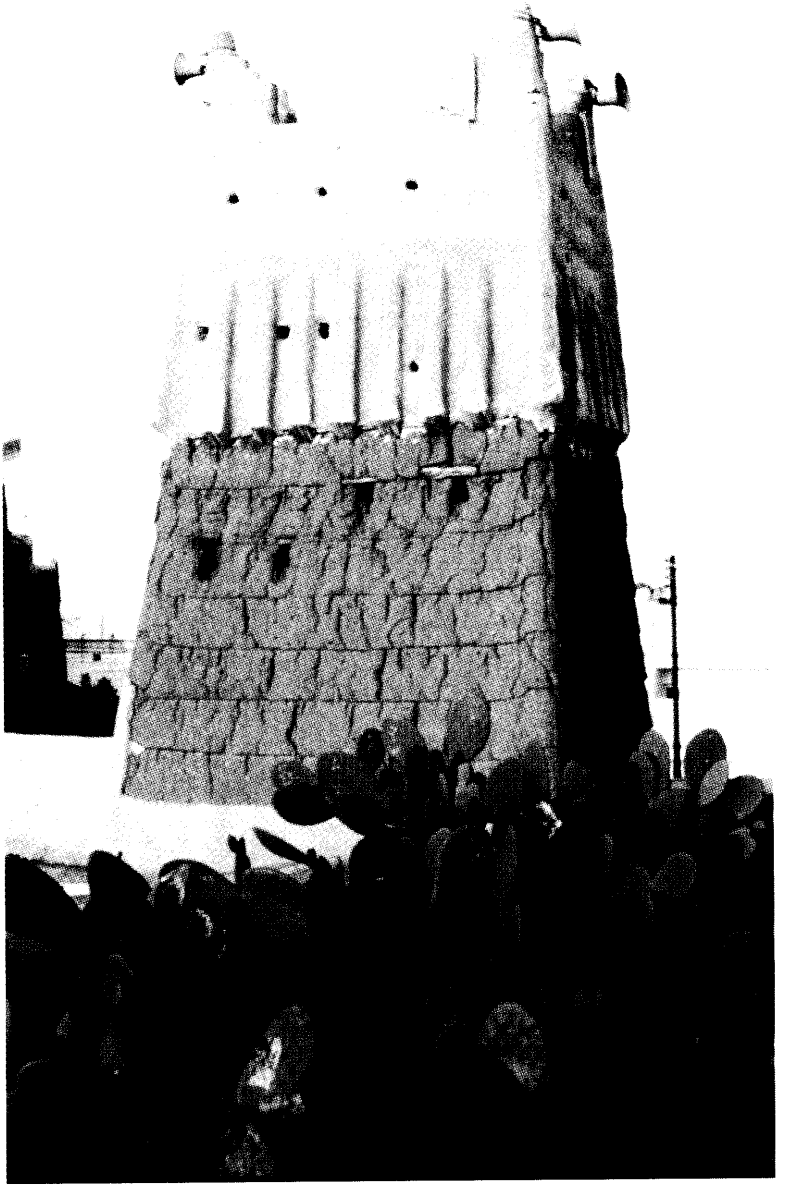

الشكل رقم (٧). يشكل المسجد جزءا مهما من الصورة الذهنية لقرى مرتفعات السـروات حيـث يتميـز للمشاهد من لونه أو محرابه أو مئذنته (إن وجدت) ويلاحظ إدخال مكبرات الصوت علـى أحد المساجد التقليدية والذي يمكن أن يلمحه المار للدلالة على المسجد.

المساكن والساحات العامة

المسكن

يختلف شكل المباني من مكان إلى مكان في المنطقة باختلاف التقاليد الاجتماعية، والظروف المناخية والأمنية وتوافر مواد البناء الموجودة في المنطقة. كما يختلف تكوينها الداخلي وفقا لعمل صاحبها، ومكانته الاجتماعية. ومع ذلك فإن معظم المباني قد تُصَمَّم من الداخل لأداء نفس الوظائف تقريبا، لكن بزخرفتها الخاصة وتزيينها [٢٠]. وقد تسكن الأسرة في مبنى واحد بعيدا عن غيره من المباني، أو في أبنية متجاورة أو متلاصقة (الشكل رقم ٨). وفي كثير من القرى المنتشرة على قمم الجبال، أو السفوح تكون المساكن متقاربة، يربط بينها طريق ضيق، وغالبا ما يكون جزء منه مسقوفا، وهو ما يعرف بالسادة (الساباط) كما يوضحه (الشكل رقم ٩). وللطريق منافذ بأبواب تؤدي إلى خارج القرية، إذ كانت تفتح في الصباح وتغلق في المساء حتى يأمن السكان على أنفسهم. ويلاحظ أن أكثر المساكن في عسير تضيق كلما ارتفعت الجدران حتى يصير شكل البناء كالهرم الناقص. وقد بنيت هذه المباني بالطين أو الحجر أو كليهما. ولهذا الشكل مزية بالإضافة إلى جماله، وهي أنه يجعل للمبنى قاعدة عريضة تثبته. ولاشك أن القدماء أدركوا مزايا هذا الأسلوب في البناء فبنوا على منواله في أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية. وإلى جانب هذه النماذج من العمارة توجد المساكن التي استخدم فيها الطين والحجر، وتتميز بقطع حجرية رقيقة تسمى الواحدة منها النطف أو الرقف، حيث تصف جنبا إلى جنب فوق كل مدماك طيني أثناء إقامته، وتكون ناتئة عنه، لكي تحميه من الأمطار الغزيرة وحبات البرد الكبيرة. ويشمل هذا الطراز المعماري أبنية مختلفة الأشكال منها المربع والمستطيل والدائري، وكلها استخدمت للسكن أو للدفاع أو لخزن الحبوب، ولا يعرف لهذا الطراز مثيل في أي بلد آخر من العالم، فهذا التشكيل العمراني والزخرفي يساعد في بناء وترسيخ الصورة الذهنية للمكان.

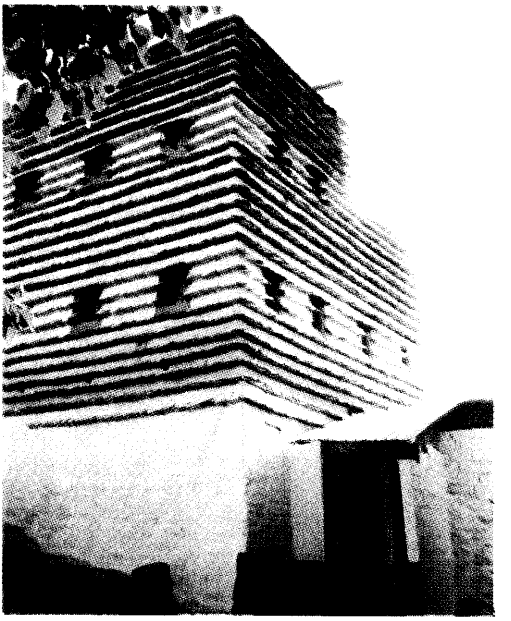

لشكل رقم (٨). تتميز البيئة العمرانية للقرية في مرتفعات السروات بطريقة البناء والتشكيل الزخرفي لها، ممـــا يعطي ويؤكد صورة ذهنية للقرية للدلالة عليها وتمييزها عن غيرها.

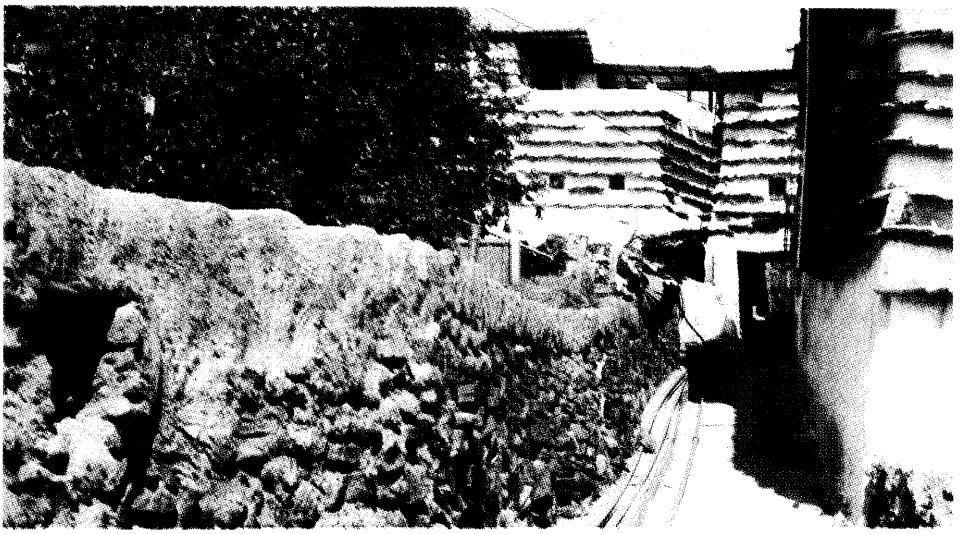

لشكل رقم (٩). يتميز التشكيل الداخلي لأحياء وممرات القرى من عناصر عمرانية ومعمارية ممثلة بالســـاباطات والألوان الزاهية والأشجار والتي بدورها تعزز من بناء الصورة الذهنية للمكان.

الساحات العامة

تتميز البنية العمرانية في منطقة السروات بالتضام (COMPACT) بين أجزائها تتخلل نسيجها العمراني ساحات مفتوحة للاستخدام العام في مناسبات الأعياد والأعراس والمآتم والبيع والشراء والمشاورات بين السكان وتسمى بأسماء تميزها عن غيرها كالبسطة في قرية آل الخلف والحوية في قرية آل ينفع والمشوعة في قرية العكاس. وتتميز هذه الساحات بسهولة ويسر الوصول إليها من خارج وداخل القرية (الشكل رقم ١٠).

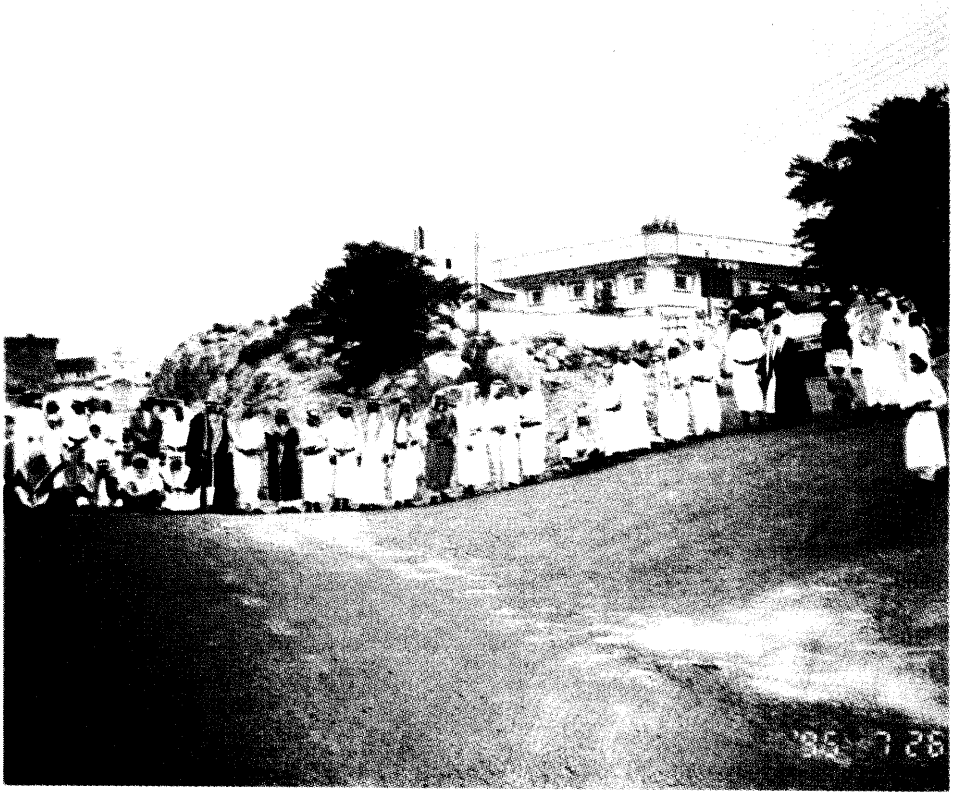

الشكل رقم (١٠). تتميز قرى جنوب غرب المملكة (عسير والباحة) بوجود ساحات عامة تستخدم لأغـــراض استقبال ضيوف القرية وإقامة الحفلات والاحتفال بالأعياد وتشكل النشاطات بداخل هذه الساحات صورة ذهنية عن القرية تسترعي انتباه المارة من أهل القرية ومن الزوار والغرباء.

الأسواق الأسبوعية

تشكل الأسواق الأسبوعية جزءا من الصورة الذهنية للقرية حيث أنشئت المجمعات الحضرية في المنطقة حول المساجد، كما قامت الأسواق وأماكن الصناعات والحرف بالقرب منها (الشكل رقم ١١). فقد أقيمت الأسواق الشعبية في أماكن معروفة، وأوقات معلومة من كل أسبوع، حيث كان لكل قبيلة سوق معروفة الزمان ومحددة المكان. وتستمر تلك الأسواق - في العادة - من الصباح حتى الظهر، ويقبل عليها السكان من المناطق المجاورة للمقايضة. وتعرف هذه الأسواق بأسماء الأماكن أو الأيام التي تقام فيها، فيقال مثلا: سوق الثلاثاء (أبها)، أو سوق السبت (سبت بني بشر أو سبت العلايا). ونظرا لاختلاف البضائع المعروضة في السوق، ومدى تأثرها بالشمس فإن هناك نوعين من الأسواق: الأول، الأسواق المكشوفة في الساحات العامة، وهي الشائعة، وتعرض فيها - في الغالب- البضائع المصنوعة من جلود الماشية وأوبارها، وأشعارها وأصوافها، أو من سعف النخيل أو الدوم. كما توجد فيها الملابس والحيوانات وأعلافها، ولكل بضاعة ركن معين من أركان السوق، قد يكون مغطى بمظلات من القماش، أو من أغصان الشجر لحماية السلع من الشمس. والنوع الثاني من الأسواق هو الأسواق المبنية، وتضم دكاكين متجانسة ومتلاصقة يصلها بالساحة العامة رواق مغطى، وتعرض فيها الحبوب المختلفة من حنطة وشعير وبن وغيرها. ولم يقتصر نشاط الأسواق على البيع والشراء، بل شمل مفاهيم مرتبطة بالسوق ويؤثر على الإدراك وتشمل المقاضاة والمصالحة بين الناس والإعلان عن أحداث مهمة ولا تقتصر عليها، وذلك على أيدي ذوي الرأي من شيوخ القبائل، وممثلي الحكومة.

فالنشاط البشري مع المعروضات والتشكيل العمراني لبيئة السوق تكون صورة مدركة حسيا فعند الاقتراب من السوق يمكن الاستدلال عليه من الأصوات والروائح قبل رؤية النشاط. ومما يزيد الصورة الذهنية وضوحا هو رؤيتها حقيقة بالنشاط وطريقة العرض والتشكيل العمراني.

الشكل رقم (١١). تتميز مراكز قرى جنوب غرب المملكة (عسير والباحة) بوجود أسواق أسبوعية يقوم المزارعون والتجار فيها بعرض وتبادل منتجاتهم الزراعية والتجارية. تشكل النشاطات التجارية بالسوق صورة ذهنية للمكان تسترعي انتباه المارة من أهل القرى والمتسوقين والغرباء.

السبل والطرقات

تشكل السبل والطرقات بأشكالها المتعرجة وجدرانها، التي غالبا ما تحد المزارع، جزءا من الصورة الذهنية للقرية، وهي تعج منذ الصباح الباكر بالمزارعين والحيوانات الذاهبة إلى الحقول والمراعي، وفي المساء عائدة بنتاج اليوم والمحاصيل والألبان (الشكل رقم ١٢). فكل سبيل وطريق له اسم يدل عليه سواء من حيث اتجاهه (الشمالي أو الشرقي)، أو يدل على اتجاه إلى مزرعة معينة، أو بئر أو على وجود عائق طبيعي/وهلمجرا.

الشكل رقم (١٢). تشكل البيئة لقرى جنوب منطقة عسير ممثلة بالقصبات المربعة والدائرية الشاهقة والمبنية من الخلب (الطين) والرقف أو الحجر أو بهما معا وكذلك السبل المؤدية من وإلى القرية والمبنية لقرى جنوب منطقة عسير جزءا من الصورة الذهنية عن المكان.

المدرجات الزراعية وقنوات الري

تميز سكان منطقة عسير بتطويع طبيعتها الصعبة لتكون قابلة للاستزراع فحولوا جنبات الأودية وسفوح الجبال إلى أراض منبسطة محكومة لأغراض الزراعة، وهي لا يمكن مقارنتها بمروج وسط الجزيرة أو سهول تهامة. ولقد أعطت هذه المدرجات بمسكراتها (قنوات المياه داخل المزارع)، والخلجان (مصاريف مياه الأمطار)، والغيل (مصارف المياه الزائدة من الآبار والمزارع)، والدبل (مصاريف المياه الزائدة من المزارع) وتشكيلاتها على مد البصر صورة ذهنية عن المنطقة ككل (الشكل رقم ١٣). وقد يتميز شكل هذه المدرجات في كل قرية ليعطي صورة ذهنية للقرية أو المزرعة نفسها.

الشكل رقم (١٣). استمرار الإنسان بمرتفعات السروات بتسخير قدراته العقلية والجسمية بتحويل التضاريس الطبيعية الصعبة إلى أماكن صالحة لأغراض الزراعة والإنتاج والترفيه والتي تشكل بدورها فراغات وحدودا ومسطحات كأجزاء من الصورة الذهنية عن هذه المنطقة سواء على المستوى المحلي أو الوطني أو الدولي.

آبار المياه

اعتمد المزارع في مرتفعات السروات على مياه الأمطار في سقي مزارعه فشق الخلجان وأقام الكظام (سدودا محلية)، لكنه سخر الإمكانات التي منحه الله إياها في حفر الآبار ومشاركة أبناء جلدته في إقامة السواني ونزح المياه وسقي مزارعه، وإيصال مياهها إلى المساجد عبر نظام (المطاليع) الذي هو إيجاد خزانات وسطية بين البئر القريب من الوادي

وبين المسجد. فالبئر أعطى صورتين ذهنيتين الأولى منها المسموع وهو صوت المحال (البكرات) والحدا الذي يتسلى به مأمور السانية وصوت الثيران أو الجمال أو الحمير أثناء السني، والآخر مرئي وهو منشأة البئر نفسه بأشطانها وحبالها وبركها (الشكل رقم ١٤). بالإضافة إلى موقع البئر الذي دائما ما يحتل مكانا مميزا في نسيج القرية، وخاصة إذا كان البئر يستخدم لماء الشرب حيث ترى النسوة وهن يرتدن البئر للتزود بماء الشرب.

الشكل رقم (١٤). يشكل البئر بأشطانه العالية صورة ذهنية للمكان يدركها المارة من أهل القرى والغرباء.

الجـــــــرن

الجرن والجرين أو اليرين هي تبة مدكوكة دائرية الشكل، وقد تكون مستطيلة أو مربعة حسب طبوغرافية الأرض. وقد يصل قطرها إلى ما يتراوح بين ٦ و١٢م وترتفع عن الأرض قرابة المتر تجمع عليها الحبوب وتهرس من قبل الحيوانات (الثيران والحمير)، وذلك بجر حجر كبير فوق المحصول (الشكل رقم ١٥). والجرن بدورها تشكل نقاطا (Nodes) بين الحقل وبين القرية. وقد يلمح الرائي العديد منها عندما يطل على القرية من أحد المطلات (Look outs) ويشكل صوت درس وهرس المنتجات الزراعية وربما رائحتها صورة ذهنية أخرى للمكان.

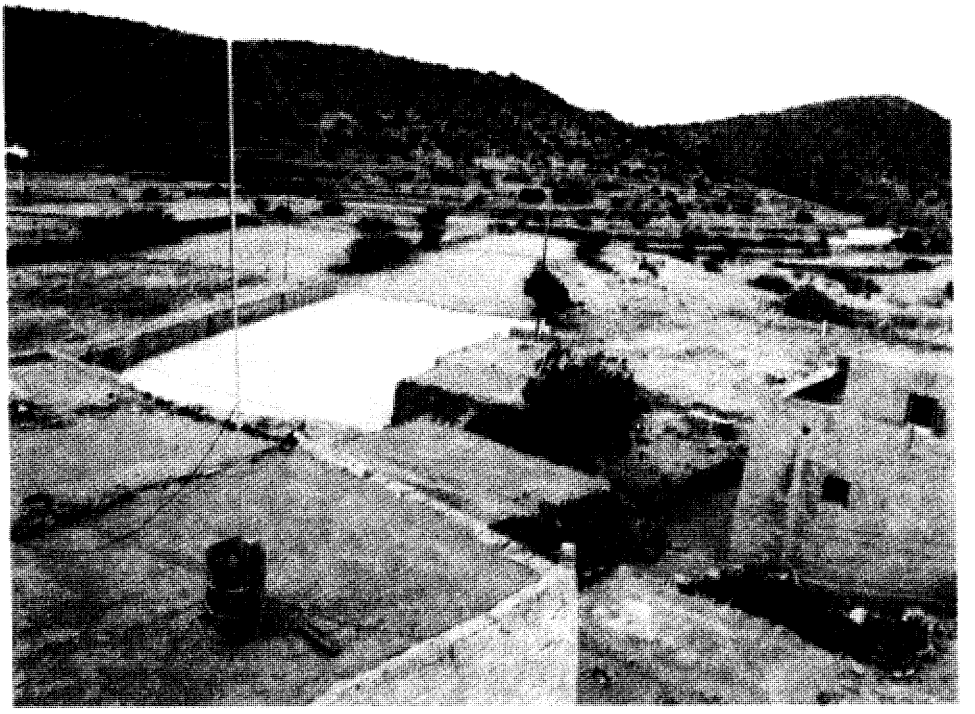

الشكل رقم (١٥). يشكل الجرن (أماكن هرس الحبوب) بساحته المرتفعة والمرصوفة أو المصبوبة جزءا مهما من الصورة الذهنية للمكان.

طبوغرافية الموقع

للطبوغرافية دور بارز في تعزيز شكل بعض القرى، وكذلك المدرجات الزراعية (المصطبات) حيث يكون تأثيرها شديداً بازدياد حدة الطبوغرافية، كما نراها في جبل قرية ذي عين حيث تقع القرية في قمة الجبل، ويلمحها المشاهد من بعد. وقد عزز التكوين الرخامي للجبل من الصورة الذهنية للقرية أيضا.

الخصائص المعمارية والعمرانية للقرية

تتميز المنطقة بالخصائص المعمارية والعمرانية للمباني. ويمكن تلخيصها في التالي:

١ - يعتبر الحجر والخلب (الطين) العنصرين الأساسيين للبناء، مع استخدام جذوع الأشجار في التسقيف والقِضاضِ (مادة شبه أسمنتية تنتج محليا) لأعمال اللياسة.

٢ - الاتجاه الرأسي في البنيان، وذلك نظرا لضيق المسطحات المستوية، وصعوبة الامتداد الأفقي. وقد نجح الإنسان في الوصول بمباني الحجر والطين إلى ارتفاع ٨ طوابق.

٣ - الحصانة التي تتميز بها هذه المباني، فالمنزل ما هو إلا قلعة صغيرة بكل ما تتميز به القلاع من وجود فتحات صغيرة لإطلاق النار، وأبراج مراقبة ومتانة في البناء... إلخ، وذلك لانعدام الأمن قديما بين قبائل هذه المنطقة.

٤ - إعطاء أهمية كبيرة للتوجيه وخاصة لأعالي المنازل شبه البرجية التي تسمى (المشراح)، حيث يسقف نصفها، ويترك النصف الآخر، حيث تعمل به شطفات تسمح بالرؤية نحو المنحدر للمدرجات الذي يطل على مزرعة صاحب الدار، والمناظر الخلابة (الشكل رقم ١٦).

٥ - التوزيع المتراص للمباني، وهذه ظاهرة تتفق مع الوضع الطبيعي للاستيطان حيث تتجمع المساكن لسهولة الاتصال وتبادل المنافع والقرب من الخدمات.

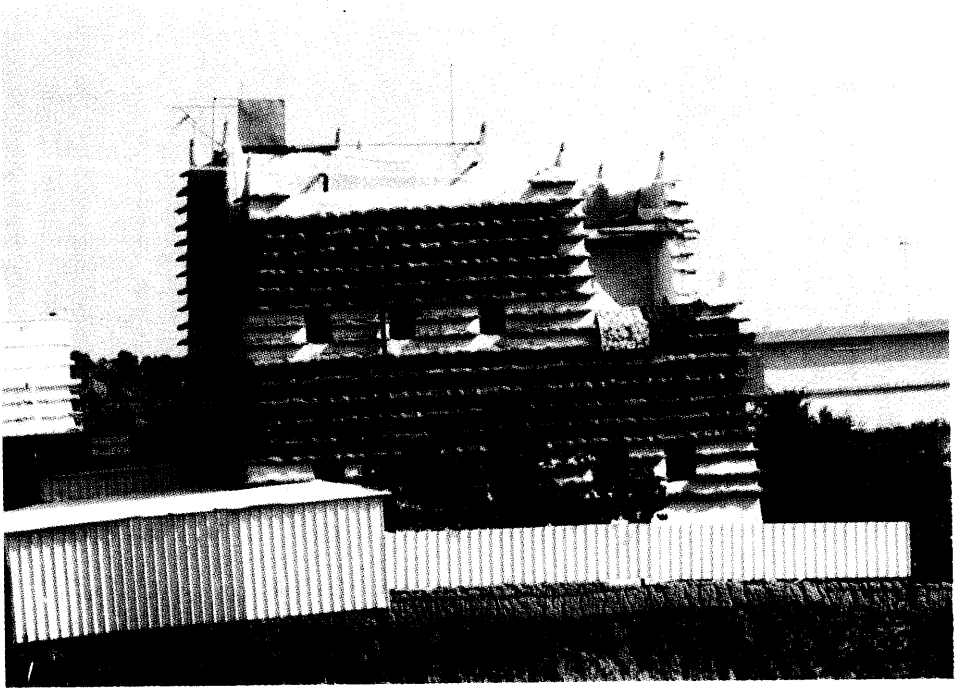

الشكل رقم (١٦). تتميز المباني السكنية لقرى جنوب غرب المملكة بوجود فناء علوي (مشراح أو شماسي) ويعتبر تصميم هذا العنصر المعماري مهما وذلك بتوجيهه إلى الرياح المحببة وإلى المناظر الخلابة كما أنه يعطي صورة ذهنية للبيت.

الإطار النظري للصورة الذهنية

حقق البنّاء المسلم من خلال استخدامه عدداً من العناصر العمرانية في البيئة المبنية بناء إطار بصري للصورة الذهنية للمكان. فمثلا عندما استخدم القصبة أو الحصن أو المنارة حقق فكرة الاتجاه إلى أعلى [٢١]. إن تعدد وجود القصبة أو الحصن في البيئة الحسية الواحدة يعطي صورة ذهنية عن أهمية الدفاع والحذر لدى السكان. أما شكل المنارة فيعطي صورة ذهنية عن أهمية العبادة لدى السكان. أما انفراد القرية بالوقت الحاضر بمآذن خاصة أقل ارتفاعا من القصبة أو الحصن، فإن ذلك لا يعنى أن المآذن أقل ارتباطا بالبيئة المبنية حيث إن كلا منهما أصبح ويصبح رمزا للمكان. وقد مكنت تقنيات البناء من الظهور

أشكال مختلفة للقصبة أو الحصن أو المنارة يساهم شكل كل منها في إعطاء صورة ذهنية لمكان. ولذلك يمكن اعتبار أي منها مفردا تراثيا ذا دلالة معمارية. وتنطبق هذه المبادئ على العناصر العمرانية الأخرى كالحي السكني بأكمله أو الجرن أو البئر أو المدرج الزراعي كمسارح (Plat Forms) للنشاط الاقتصادي.

ترتبط الصورة الذهنية التي يمكن رسمها للقرية من خلال تلك العناصر بذكرى لمشاهد لها، أو لأحد مكوناتها الملموسة من خلال استدعائها كظواهر سلوك. إن الظاهرة في السلوك، دفعت الكثير من علماء النفس والاجتماع إلي دراسة الأفكار المتعلقة بعمل وتفكير مهرة البناء في الماضي والمهندسين والمصممين في الوقت الحاضر ومحاولة ربطهما بالإدراك الحسي الحاصل والناتج عن عملية التصميم أو اتخاذ القرار لدى ممارسي التصميم والتخطيط الملموس، والتي تأخذ مكانها ضمن العقل المفكر لكون التصميم لغة غير كلامية وصفة لذوق المصمم وتعبيرا للغة الجمال التي يحاول إيصالها للمشاهد عبر التصميمات.

فالإدراك الحسي مرتبط بالمقدرة على الفهم الذي يمكن وعيه وإدراكه من الإنسان عن طريق الحواس والخواص الطبيعية التي تحويها العناصر العمرانية في البيئة الملموسة، وهو جزء من التعامل والتداخل بين ما هو موجود طبيعيا في العالم الحقيقي وأحاسيس المُسْتَقْبِلْ. فدور هذه العناصر هو تحريض إحساس الشخص المستقبل لهذه الأشياء وتحويلها لصورة ذهنية.

تشجع مرئيات وأفكار المستخدمين للعناصر العمرانية على اشتقاق الأسس والنظريات لبناء تصورات جديدة للصور الذهنية للكثير من العناصر الحضرية التي يمكن استحداثها بشكل مستمر في البيئة المبنية بشكل منطقي. فمن خلال تحليل الحقائق المنطقية حول عمل البناء والمصمم وصانع القرار التصميمي وتوظيفها بما يتلاءم، وعلاقة الإنسان بالبيئة والمحيط الذي يعيش فيه، يمكن استكشاف أن البعد الحسي لهذه الصور الذهنية بمعناه الدقيق - هو الطور الوحيد الذي يميز ظاهريا عمل تلك الأشكال فيما يخص بناء الصورة الذهنية لها. وبما أن الإدراك الحسي يمكن أن يظهر في الذهن بصورة تلقائية أو بصورة إرادية، فإنه من الملائم التمييز بين الإدراك التلقائي والتذكر المتعمد. فالإدراك الحسي

التلقائي لتلك العناصر هو ظهور الصور من الذهن عندما تكون هناك مناسبات صريحة لظهورها وذلك عند مشاهدة أي منها سواء صورا ضوئية أو مرورا عابرا، ويقابله الإدراك الحسي المتعمد الذي يتميز بالبحث عن الصورة في المجال الذهني. ويقوم ذلك على استرجاع الذكريات الخاصة بالصورة الذهنية استرجاعا ذهنيا، مع ما يصاحبها من ظروف المكان والزمان، مع تحديد موقع هذه الذكريات في الزمن الماضي.

ثمة نوع من الإدراك الحسي الأولي يدعى التعرف (Cognition)، وهو النوع الوحيد من الإدراك الحسي الذي يمتلكه الإنسان ويقوم التعرف على التحقق من مطابقة المعلومات المدركة في الحاضر لخبرات المشاهد الماضية أو عدم مطابقتها لها، فإذا كان استدعاء الصورة الذهنية المحفوظة مثلا يتمثل في استرجاع عناصرها، فإن التعرف هو الحكم بأن أي عنصر يرى منها هو جزء منها. وفي كل الأحوال فإن التذكر يشكل في الحقيقة إعادة بناء للماضي أكثر مما يشكل بعثا دقيقا لهذا الماضي. فالتذكر استدعاء راهن للماضي، وطبيعي أن ترتبط بنية الذكرى المستدعاة بظروف الاستدعاء، وأن تتبدل إلى هذا الحد بتبدل هذه الظروف.

لقد أسهمت الفلسفة الظاهراتية (Phenomenology) إسهاما متميزا في تحديد الطابع الحقيقي للعناصر المرئية كعلامات في البيئة المحيطة وفي التمييز بينهما وبين الإدراك وخاصة الحسي. تعتبر الفلسفة الظاهراتية أن تحليل "المدرك" و"المتخيل" يتعين أن ينطلق من فعل الوعي حين يدرك وفعل الوعي حين يتخيل لا من محتوى الإدراك.

إن محاولة تأسيس نظرية موحدة شاملة للعلامات لم تقم إلا في أوائل القرن العشرين على يد الفيلسوف الأميركي بيرس Peirce. حيث جرى العرف على استعمال كلمة Sign أي علامة بمعنى الدال. أما فيما يخص العلامة المعمارية (عنصر فني) فهي ارتباط بين الصورة المرئية والمفهوم الذهني، فالدال المعماري أي الصورة المرئية هي على غرار المدلول. أي أن المفهوم الذهني، ذو طبيعة مجردة فالعنصر العمراني مثل المنزل أو القصبة أو المنارة أو الجرن يمكن الظهور بها مرات لا تحصى وبطرق مرئية مختلفة، كما أنه يمكن بناؤها بطرق متنوعة حجر، طين أو حجر وطين أو أسمنت مسلح أو زجاج وغيرها.

فالمدلول هو صورة ذهنية تنتمي إلى العلامة المعمارية. إن الحقيقة في وضع العلامات إنما هي للدلالة على المعاني بالذهن، فإذا رأينا شكلا من بعيد وظنناه قرية سميناه بهذا الاسم، فإذا دنونا منه وظننا كونه مبنيا فإننا نسميه بذلك، فإذا ازداد التحقيق بكونه قصبة سميناه بذلك، فإذا حصل التحقيق بكونه قصبة بحد ذاتها سميناه بها، فدل ذلك على أن إطلاق الألفاظ إنما يكون باعتبار أن ما يحصل في الذهن يختلف باختلاف العلاقات بين الألقاب والصور. فالعلاقة، من جهة كونها تتولد في ذهن شخص هي بناء علامة أو صورة مساوية للعلامة الأخرى، أو ربما أكثر تطورا منها.

وعند البحث في العلاقة بين العلامات ذاتها يمكن الاستناد إلى علم المبنى Syntactics الذي يصنف العلامات وفقا لخصائص معينة، ويضع القواعد التي يتم بها تركيب العلامات والتحويلات التي تجري عليها، كما يمكن الاستناد أيضا إلى علم الدلالة Semantics الذي بدوره يدرس العلاقة ما بين العلامات ومدلولاتها. فالمدلول قد يعتبر من حيث كونه صورة ذهنية قصدية، ومن حيث كونه الشيء الخارجي الموافق لهذه الصورة.

وعند البحث في العلاقة بين العلامات وبين المعاني يجب الرجوع إلى علم المعاني Meaning، وعلم الدلالة الخارجية Sigmatics الذي يتناول العلاقة بين العلامات والأشياء الخارجية لكن بما أن دلالة العلامات على الأشياء الخارجية لا تتم إلا عبر المعاني، فهذه الدلالة تشكل علاقة ثلاثية: (علامات، معان، العلاقة بين العلامات والأشياء الخارجية).

إذن العلاقة Relation التي تربط العناصر العمرانية المتناثرة في الفضاء هي علائق قرب أو بعد، تزامن أو تعاقب. ويمكن القول إننا لا نجد في الواقع عنصرا منحصرا في ذاته بشكل مطلق، بل إن كل عنصر هو حتما على علاقة مع عناصر أخرى.

فعندما يقال إن عمارة المنطقة تزخر بالعديد من الظواهر التي تميزها عن غيرها في مناطق المملكة مثل الحصون والقصبات والمدرجات الزراعية والجرن والرقف، فالظواهر المعمارية ليست سوى تلك المعطيات التي تبدو للوعي على نحو مباشر، فتؤلف محتوياته. وتنقسم الظواهر إلى مجموعتين كبيرتين هما: مجموعة الظواهر المحسوسة (الملموسة)،

ومجموعة الظواهر العقلية. وعلى أية حال يمكن القول عامة إن الظواهر الملموسة (الفيزيقية) هي تلك التي ندركها عن طريق الحواس الخمس. وعليه فاللون والشكل والمنظر الذي يشاهده المرء كل هذه أمثلة لظواهر ملموسة والصوت والرائحة هي ظاهرات محسوسة أيضا.

أما الظاهرة العقلية فهي ما يعطى للإحساس أو الخيال. ولا تقتصر الظاهرة العقلية على ما هو معطى للوعي، بل تشمل فعل العطاء كذلك. كرؤية جسم ملون، وكذلك التفكير في مفهوم عام والحكم والتذكر والتوقع والاستدلال والاعتقاد واليقين والشك والظن، وكل انفعال وابتهاج وحب وبغض وغربة واختيار وقصد وتساؤل واحتقار - كل هذه أمثلة لظواهر عقلية. فالظاهرة العقلية لا تشمل ما يعطى للوعي فحسب، بل ما يستند إلى ما يعطى إليه. فرؤية مشهد ظاهرة عقلية، لأنه يعطي للوعي البهجة أو السرور أو الخوف أو الاشمئزاز، فالصورة التي تصحب هذه الرؤية ظاهرة عقلية، لأنها تستند إليها.

يمكن استخلاص أن بناء الصور الذهنية للعناصر الحضرية يجمع بين الفن والعلم لغرض الإبداع الفكري في تخطيط وتصميم المرافق الخاصة لخدمة المجتمع بأكبر قدر من اللياقة بين الإنسان ومحيطه العمراني والبيئي.

عند ذلك يمكن القول إن بناء الصور الذهنية هنا يتطلب من المصمم أو المنسق الالتزام بالتوفيق بين مطالب الإنسان وشروط التوازن البيئي والإحساس. أما التصميم البحت لغرض معين كالرمز للقوة أو اليقظة فقد يحوي فكرة السيطرة الكاملة للمبنى على البيئة بتشكيلات تجريدية وزخرفيه وكأن مردودها فرض إحساس العظمة والسيطرة على البيئة دون أية اعتبارات أخرى.

بناء الصورة الذهنية لقرى مرتفعات السروات خلال مائة عام

خاضت المملكة العربية السعودية تجربة فريدة في مجال التنمية العمرانية إذ اتسعت رقعة العمران بصورة فاقت حدود التوقعات. ولقد عملت لمدن وقرى المملكة مخططات إرشادية، ومن ثم تحديد للنطاق العمراني، وأخيرا المخططات الهيكلية لتنظيم عملية

التنمية وإيجاد التوازن المنشود بين نمو السكان والتوسع العمراني وتوفير مستوى جيد من المرافق والخدمات العامة.

وفي خلال المائة عام الماضية عمل على ضمان توفير الخدمات المدنية والبلدية من ماء وكهرباء وهاتف وشبكات طرق لكافة مدن وقرى المملكة بكفاءة وفعالية والعمل على تحقيق تنمية وطنية شاملة في مجال العمارة والعمران.

ولقد تم إنجاز العديد من الأعمال التي ساعدت على نمو واتساع المدن وازدهار التنمية العمرانية. وكان لتنمية الأراضي نصيب كبير في تمدد وتطور المدن والقرى بما في ذلك إيصال شبكات المياه والإنارة والطرق والتشجير وغيرها بالمساهمة في تحجيم الأزمة السكانية التي تصاحب أي عملية تنموية كالتي حصلت في العقود الماضية.

لقد ساهم تطور المرافق والخدمات البلدية في انتعاش السياحة وتنمية وتطوير المناطق السياحية في مرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة والمحافظة عليها. ولقد قامت الإمارات والبلديات بدورها في غياب هيئة خاصة تعنى بشؤون السياحة واستخدمت في ذلك كافة الوسائل، بالإضافة إلى تغطية المناطق السياحية بالخدمات اليومية المطلوبة. وأدى انتشار المدن والقرى انتشارا أفقيا إلى ظهور الحاجة إلى نقاط مرجعية للتعرف على المكان فكانت الميادين والساحات والأشكال الجمالية التي تؤدي دورها الطبيعي في تجميل المدن. وتحولت الأشكال الجمالية إلى معالم يهتدي به الساكن والسائح والزائر للوصول إلى المكان الذي يريده في المدينة وحتى القرية. وأصبحت الأشكال الجمالية مهمة لوجود أعداد كبيرة من الوافدين لحاجة البلاد إليهم في تنفيذ مشروعات التنمية وأصبحت هي اللغة المشتركة للتعريف بالمكان. ولقد ازدانت الكثير من الميادين والساحات والزوايا في عدد كبير من مدن المملكة وقراها بالكثير من الأعمال الفنية التجميلية على اختلاف أنواعها وأحجامها، وأصبحت هذه الأشكال بمثابة علامة مميزة يتعارف عليها، وتوصف بموجبها المناطق في المدن وأصبحت أحد الدلائل البسيطة والواضحة في معرفة العنوان بمنطقة ما، ويتخذها الأهالي وسيلة جادة في الإرشاد إلى المنطقة أو الحي أو الميدان.

تتميز بنية القرية الحضرية ومحيطها التقليديين في مرتفعات جنوب غرب المملكة العربية السعودية بعناصر حضرية بنيت لتحقيق أغراض وظيفية ورمزية خاصة على سبيل المثال لا الحصر مثل القصبة أو الحصن (برج الدفاع والمراقبة)، الأحياء السكنية بمبانيها شبه البرجية (بزخارفها وألوانها)، المساجد (بمآذنها ومحاريبها وقبابها)، الأسواق (بساحاتها ومعروضاتها)، الساحات العامة، السبل التي تؤدي إلى المزارع والطرقات، آبار المياه (بأشطانها)، السواقي والجرن (أماكن هرس الحبوب) الغابات ومقالع الأحجار.

بعد تأسيس المملكة العربية السعودية واستتباب الأمن انتفت الحاجة إلى الإنشاءات ذات الصبغة الدفاعية، مما نتج عنه توقف إنشاء القصبات أو الحصون والمباني شبه البرجية والتي كان لها دور كبير في إعطاء صورة ذهنية للمكان، وسمة مميزة لخط النماء في قرى وأرياف مرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة.

استعيض بعد ذلك بإنشاءات جديدة على المنطقة ممثلة بالمساجد ذات المآذن العالية والقباب والتي غالبا لم توجد في المساجد قبل تلك الفترة، وكذلك المباني الخرسانية على اختلاف وظائفها (السكنية أو المؤسسية) بأحيائها المتسعة والممتدة أفقيا وكذلك الجرن المبنية بالخرسانية والآبار ذات المعدات الميكانيكية والكهربائية. كما أن بعض الأسواق الأسبوعية انحسر وجودها، نظرا لوجود السيارة والطرق المعبدة واستعيض عنها بالمحلات التجارية.

واكب تأسيس المملكة إدخال السيارة كوسيلة نقل، وما صاحب ذلك من شق وتعبيد للطرقات. كما واكب تأسيس المملكة أيضا زيادة الواردات للمنطقة وخاصة مواد البناء المستوردة، وكذلك الميكنة التي حلت محل الإنسان والدابة مثل إدخال المضخة محل السانية (الساقية) في إخراج المياه من الآبار وما صاحبها من تغيير في بنية البئر.

يمكن القول إن للعناصر الحضرية الفذة في القرية ومحيطها دورا في تعزيز بناء الصورة الذهنية للقرية. ولاشك أن هذه العناصر تأثرت وتتأثر بالعوامل الثقافية والسياسية والشعائرية المطردة التي تعيشها المملكة منذ تأسيسها الذي قارب السبعين عاما.

وإذا كنا هنا في المملكة، اضطررنا ذات يوم، وتحت تأثير الهجمة التنموية الهائلة (في ميدان الإعمار على وجه التحديد)، إلى استعارة نماذج أجنبية في البناء الحديث، فذلك

لأن عجلة التنمية كانت تدور بسرعة تفوق إمكانات الدراسات البيئية والتقليدية. ولذا يجب في الوقت الحاضر الاستفادة من هذه الدراسات البيئية لتطوير البناء الحديث من خلال تطعيمات وتمليحات من مقومات اللغة المعمارية التقليدية.

فعندما تقسم القرية إلى بؤر بصرية ذات كتل أو فراغات متميزة وخاصة عند تغيير الاتجاهات يمكن أن يضفي ذلك صورة بصرية متجددة للمكان، وبتكرارها تضيف طابعا موحدا للمكان. من دراستنا لهذه المفردات يمكننا التعرف على "الآلية" التي يتحول فيها المضمون المعماري لتلك الكتل أو الفراغات إلى مفرد معماري فذ يعبر عنه بصورة ذهنية.

فعندما طبقت دراسة الصورة الذهنية للمدينة بشكل متكامل على العديد من المدن الأمريكية والتي بدأها كيفن لينتش في عام (١٩٦٠م) على مدن بوسطن ولوس أنجليس وجيرسي سيتي، أمكن وضع إطار بصري متكامل لتنمية الصورة الذهنية الشائعة في تلك المدن [٢٢]. وقد قام بعد هذه الدراسة الأصيلة والمستفيضة مجموعة من المخططين والمعماريين وعلماء النفس بالخوض بمسألة أمر الصورة الذهنية متضمنة دراساتهم توجيه اقتراح بعض النماذج الموثقة والأساليب العلمية للدراسات الأكثر تعمقا في المستقبل في هذا المجال، وذلك بهدف الوصول إلى ثوابت ومحددات علمية للدراسات البصرية لتطبيقها على البيئات المختلفة، كدراسة المدن القديمة والحديثة سواء كانت مدنا ذات تخطيط مدمج (Compact)، أو منتشر (Sprawl)، أو البيئات الحضرية المنتظمة التخطيط (Grid-iron)، أو تلك ذات التخطيط العشوائي غير المنتظم (Spontaneous)، والمناطق العالية الكثافة (High Density)، والأخرى المخلخلة ومدى اختلاف القرية بصورها الذهنية عن المدينة، علاوة على إمكانات تطبيقها على مقاييس ووظائف ومشروعات مختلفة، كدراسة التصور الذهني لمبنى أو مجموعة من المباني المتكاملة، ودراسة التصور الذهني للمشروعات السياحية البيئية والترفيهية ومشروعات النقل، وإمكانات تطبيق الدراسة على المستوى الإقليمي والمدن الكبرى، والتي ازدادت صعوبة تميزها وإدراكها كوحدة متكاملة واضحة.

نظرة مستقبلية لتخطيط القرى

الهدف الرئيسي من وضع الخطة البصرية للقرية ومحيطها ليس مجرد وضع تكوين تشكيلي مبتكر، وإنما محاولة الوصول إلى إطار واضح وغني للصورة الذهنية للقرية، ضمن خطوات يمكن إجراؤها بالمفهوم الحديث لبناء الصورة الذهنية. فبناء الصورة الذهنية يضيف إلى جانب الاهتمام ألفني علوما مساندة، ليشمل الدراسات التالية: [٢٣-٢٦]

١ - كيفية اختيار الموقع لأي عنصر حضري يضاف أو يرمم وإعداد الدراسات التحليلية لإظهار إمكاناته في بناء الصورة الذهنية.

٢ - التعرف على خصائص الموقع ومؤثراته الطبيعية والعمرانية.

٣ - تحديد مسارات الحركة الآمنة لكل من المشاة والسيارات.

٤ - كيفية تكوين الفراغات التتابعية وفرشها بحسن اختيار المواد وألوانها.

٥ - تحديد الطابع العمراني للفراغات وتأمين الحماية البيئية والخصوصية.

٦ - الاستفادة من الملامح الطبيعية للموقع وتحديد الزوايا البصرية الممتعة.

ففي العمارة تعددت حدود الشكل المرتبط بمادية المكان والبيئة إلى جوهر المضمون، أي أن التشكيل في حد ذاته ليس مجرد غاية بقدر ما هو وسيلة لترجمة أبعاد إنسانية أو ميتافيزيقية.

يتناول هذا التحليل الموجز بالشرح أهم النقاط التي يجب أن تتضمنها دراسات التخطيط لتقرير الصور الذهنية لقرى مرتفعات جبال السروات في جنوب غرب المملكة، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ - العناصر المتحركة بالقرية Moving Elements

وتتمثل في سكان القرية وكافة النشاطات التي يقومون بها، وهي تؤدي دورا ذا أهمية كبيرة في تكوين الصورة الذهنية للقرية، ولا يقل هذا الدور في الأهمية عن الأجزاء التشكيلية الثابتة، فالسكان ليسوا مشاهدين للتكوينات والتشكيلات المرئية بالقرية فقط، بل يمثلون جزءا هاما في الصورة الذهنية (الشكل رقم ١٧).

الشكل رقم (١٧). الإنسان بملابسه التقليدية المألوفة يشكل جزءا من الصورة الذهنية للمكان ويمكن لعابر السبيل لمح هذه الصورة المميزة والتي بدورها تشكل جزءا من الصورة الذهنية للمنطقة ككل.

٢ – القرية الواضحة المعالم A Legable Village

القرية التقليدية في مرتفعات السروات يمكن تمييز مناطقها وعلاماتها المميزة ومساراتها وحدودها ونقاط الانتقال فيها بوضوح وسهولة، لكن بعد التغيرات التي طرأت على بنية القرية أصبح من غير الممكن إدراك هذه العناصر. فمخطط اليوم عليه التزام مهني بإيجاد بيئة للقرية واضحة المعالم. يمكن إدراك ترابط عناصرها وتكاملها في تشكيل واحد وواضح (الشكل رقم ١٨).

الشكل رقم (١٨). استخدام فكرة القصبة والحصن بأشكال جديدة كعنصر لتجميل المباني وساحات المدن وتقاطعات الطرقات الكبيرة ساهم في عدد من القرى والمدن بمرتفعات السروات بإعطاء دلالة وصورة ذهنية للمكان.

٣ – الصورة الذهنية العامة للقرية The Public Image of the Village

بما أن الصورة الذهنية للعناصر العمرانية تدرك من قبل أغلب سكان القرية، حيث تؤدي المباني والفراغات المفتوحة والتباينات البصرية والحركة داخل مساراتها دورا مهما في تكوينها بصورة متكاملة، لذا فإن عناصر القرية الجديدة يجب أن تذكي أحاسيس الناس (الشكل رقم ١٩).

لشكل رقم (١٩). استحياء الأشكال الحديثة من القصبة أو الحصن أو مداميك الخلب مع ألواح الرقف الحجرية لبعض المباني الجديدة أصبح أمرا مالوفا يتسابق المعماريون والمحترفون إليه ويتفنن فيه عشاق العمارة التقليدية بمرتفعات السروات.

٤ – العناصر البصرية للقرية Visual Elements of the Image

تعتبر العناصر البصرية التي تتكون منها الصورة الذهنية الشائعة هي المادة الخام الأساسية التي تشكل البيئة الحضرية الكلية للقرية، والتي يجب أن تتآلف وتنسجم لكي

تحقق تشكيلا مريحا للقرية. وبوجه عام فالصورة الذهنية للقرية تتكون من تآلف وانسجام ووضوح كل من قنوات الحركة الرئيسية أو المسارات (Paths)، وحواف الأجزاء والوحدات (Edges)، والعلامات المميزة (Landmarks) ونقط الانتقال والتجمع (Nodes)، وأخير المناطق والأحياء البصرية المميزة (District quarters).

ومن الجدير بالذكر أن إدراك هذه العناصر يختلف ليس فقط نتيجة لاختلاف الشخص الذي يشاهدها ولكن أيضا باختلاف ظروف المشاهدة والإدراك. فالطريق السريع يدركه سائق السيارة كمسار للحركة ينقله من وظائف مختلفة، بينما يمكن أن يدركه المشاة في نفس الوقت كحد بصري قوي، وكذلك فمركز القرية قد يعتبر عنصرا بصريا من وجهة نظر السكان المقيمين بالمدينة، بينما هو في نفس الوقت نقطة تجمع لسكان ضواحي القرية، بل إن القرية ذاتها تعتبر عنصرا بصريا في الإقليم، ورغم هذا الإدراك الواضح في تقييم العناصر البصرية فإن المعايير الخاصة بتقييم تلك العناصر تكاد تكون ثابتة إذا ما أخذ في الاعتبار التدرج الهرمي لمستوى رؤية العنصر وتقييمه.

يمكن توصيف أهم العناصر البصرية للصورة الذهنية للقرية على النحو التالي: [٢٧-٣٠]

١ - المسارات Paths

تتميز القرى بمرتفعات السروات بقنوات متعددة للحركة، الحركة الرئيسية منها تدرك من خلالها القرية ومحيطها، وهي تختلف من مكان لآخر وفقا للوظيفة التي تؤديها، فقد تكون سبلا (طرقا) تصل القرية بالمزارع أو المراعي أو مقالع الأحجار أو طرق السيارات أو ممرات المشاة داخل البنية المبنية، أو قنوات نقل المياه والتي تزخر بها بيئة قرى مرتفعات السروات مثل الخلجان (لمياه الأمطار)، أو المسكرة أو العاند (لمياه الآبار).

فالمسارات الآنفة الذكر يمكن اعتبارها أساسا للمعالجات البصرية في القرية، ويمكن اتباعها عند تصميم مسار جديد أو إعادة تصميم مسار قائم، أو عند تصميم الهيكل العام

لمسارات بغرض تأكيد وتنمية انعكاسها على الإدراك الذهني. فالمسارات كعنصر بصري بكن أن تعطي صورة ذهنية عند مراعاة النقاط التالية :

أ) الإقلال قدر الإمكان من تفريع المسار الأصلي إلى مسارات بديلة لها الأهمية نفسها.

ب) التشكيل الحركي (Dynamic shaping) أثناء تصميم المسار لاسيما إذا نتج عن طبوغرافية الأرض.

جـ) الاستمرارية (Continuity) في الحركة.

د) التنغيم أو التناغم (Melody) بين المسار والعناصر التي حوله.

٢ – الحدود والحواف Boundaries and Edges

تمثل الحدود الطبيعية أو المبنية بالنسبة للقرى في مرتفعات السروات خطوطا بصرية بكن إدراكها كصور ذهنية ومثيرة لنوع من أنواع السلوك ، حيث تكتسب الحدود تأكيدا قوة حينما يسهل تمييزها أو رؤيتها عن بعد ، مثل ضفاف الأودية بمدرجاتها الزراعية و الحدود الحادة للجبال والتي غالبا ما يختار موقع القرية على أساسها ، بحيث تصبح تلك حدود حماية لها. ويمكن تأكيد الاختلاف بين منطقتين أو عدة مناطق من خلال الوسائل لتالية :

أ) استخدام مواد إنشائية مختلفة أو معالجات معمارية ومناظر نباتية متباينة.

ب) استخدام خواص بصرية في الخط الفاصل بين المناطق.

جـ) تصميم الحد بحيث يعطى خاصية التوجيه خلال جميع أجزائه ، عن طريقة ستخدام الميول أو النقط المتميزة عند مناطق الاتصال أو بتأكيد العلاقة بين بداية الحد نهايته.

وبوجه عام فإن تأكيد رؤية الحد البصري وتمييزه وإدراكه ذهنيا يتطلب تأكيد فرص لوصول إليه أو تنمية أهميته الوظيفية.

وفي الوقت الحاضر يتم استخدام الطرق المعبدة للفصل بين منطقتين ولحل الإشكالات الناجمة عن التداخل في الأملاك.

٣ - العلامات المميزة Landmarks

قد يأخذ منشأ غير مميز صفة الأهمية وجذب الانتباه لمجرد تميز موقعه مثل المرسام (علامة الأرض)، وذلك حينما يوقع في نقطة تؤثر في ملكية واستخدام الأرض أو قصبة الرهوة (الفاصلة بين الأملاك القبلية) لها اتخاذ قرارات تحدد مسارات الحركة في حين لا يأخذ التكوين المعماري ذو الشكل المميز أي صفة إدراكيه إذا ما وضع متكاملا مع النسيج المحيط به.

فالعلامة المكانية المميزة مثل القصبات أو الحصون أو المساجد أو الجرن أو الآبار هي عناصر ملموسة. فالعنصر الملموس الذي يتفق على تمييزه أكبر عدد من السكان يساعد في بناء الصورة الذهنية للمكان، وهناك عدة معالجات يجب إجراؤها لتأكيد وإدراك العلامات المكانية المميزة، منها ما يلي: (الشكل رقم ٢٠)

أ) التمييز بالانفراد والوحدة.

ب) التباين مع النسيج المحيط.

جـ) وضوح الشكل العام.

د) التعامل مع مجموعة العلامات المميزة الأخرى.

٤ - نقاط الانتقال Nodes

يشكل الجرن والساحات العامة في القرية نقطا (Nodes) بؤرية (Focal Points) وسطية لبناء الصور الذهنية في القرية، والتي تكتسب شخصيتها ومميزاتها من وحدة وتكامل واستمرارية مثل هذه العناصر. علاوة على تركيز النشاطات والحركة عند نقاط التجمع كالمساجد والأسواق أثناء عملية تأدية الصلاة والتسوق أو الجرين أثناء هرس وتذرية المنتوجات الزراعية، وهناك العديد من المعالجات التي يجب إجراؤها في التصميمات الحديثة لتأكيد وتنمية هذه النقاط ممثلة بما يلي:

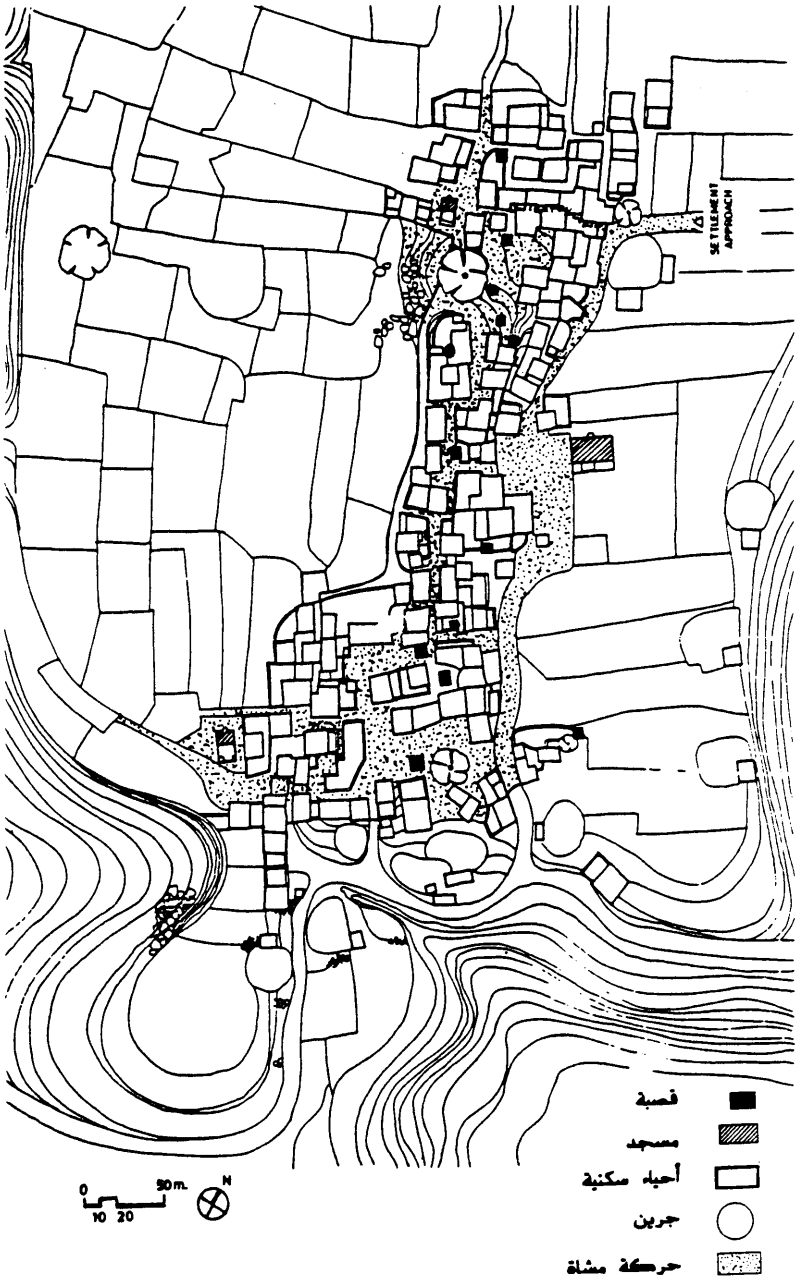

الشكل رقم (٢٠). مخطط قرية آل الخلف يوضح أهم عناصر البنية المبنية والمحيط بها.

أ) تأكيد وضوح السبل واستمراريتها.
ب) مراعاة وجود نشاط أو أكثر يجذب الانتباه.
جـ) مراعاة بساطة تشكيلها العام وأخذها تشكيلات مميزة (كالتبة الدائرية للجرن أو شجرة متفرعة الأغصان تظلل ساحة اجتماعات القرية أو ساحة تمكن المصلين من اللقاء بعد الصلاة وتجاذب أطراف الحديث).
د) مراعاة قوة تأثير وسهولة إدراك الاتصال بين هذه النقاط وبين المسارات.
هـ) تكامل نظام الحركة والتوجيه داخل نقاط الانتقال مع الجزء الخارجي، مع إنشاء منظومة متكاملة تربط كافة تلك النقاط للانتقال بعلاقة قوية وواضحة ومميزة.

٥ – التفاصيل المعمارية

تتميز عمارة قرى مرتفعات السروات بتفاصيل معمارية مميزة مثل الرقف والمرو والمداميك الطينية أو الحجرية الزخرفية والألوان (الشكل رقم ٢١). فالتفاصيل المعمارية ذات الطابع المتجانس يمكن تمييزها من خلال استمرارية المشاهدة لها كشواهد وأدلة ذات صفات مشتركة والتي تنتهي بالخروج من العنصر المعماري بصورة ذهنية. التجانس والاستمرارية في التفاصيل كعناصر بصرية يمكن تحقيقها من خلال الطابع المعماري والنسيج الحضري، والألوان لمواد البناء والأرضيات، وحجم وتفاصيل الواجهات، وطرق الإضاءة الطبيعية، وإدخال النباتات كعنصر تصميمي، وكلما زاد عدد العناصر المنسجمة وتداخلت وتوحدت ازداد الإحساس بالصورة الذهنية وضوحا وتأكد الإدراك الذهني لها، وفي بعض الأحيان يحدث خلط بين العنصر البصري ونقاط الانتقال، إلا أنه يمكن التمييز بينهما من الناحية الفراغية، حيث يحتاج العنصر إلى زمن أطول لاستيعابه، كما أنه يتطلب توافر مجموعة متتابعة من التجارب الذهنية للوقوف على إدراكه بصورة شاملة.

٦ – الإحساس بكلية عناصر القرية

عند معالجة العناصر البصرية المؤثرة في الإدراك الذهني للقرية، من الضروري اعتبار كل عنصر منها متداخلا وذا صلة كبيرة ومتكاملا مع العناصر الأخرى، بحيث تبدو

جميعها في النهاية منظومة متناسقة في انسجام وتوافق ينتج عنه عمل سيمفوني متكامل أو صورة ذهنية ثرية وجميلة تبرز المنطقة بقوة ووضوح في إطار القرية الأم.

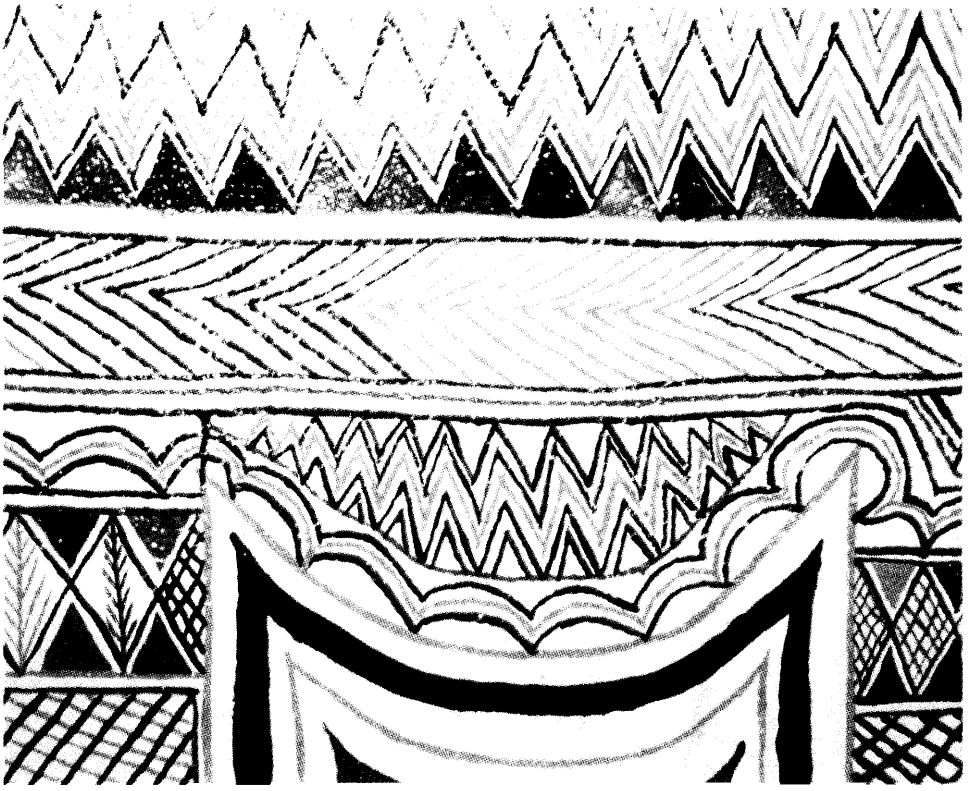

الشكل رقم (٢١). تتميز البيئة الداخلية للمباني في مرتفعات السروات بالزخارف الجميلة والملونة والمحفورة والتي بدورها تعطي صورة ذهنية مميزة للمكان وقد حافظ بعض المعماريين على تزيين الفراغات الداخلية لبعض المباني العامة مثل زخرفة الفراغات الداخلية لمبنى إمارة أبها الحديث.

المعالجات البصرية لتشكيل القرية

هناك العديد من المعالجات البصرية التي يمكن إجراؤها لتأكيد وضوح التشكيل وسهولة إدراكه وتحقيق صورة ذهنية متكاملة وغنية فالعنصر البصري مثلا هو ذلك الجزء

من القرية الذي يجمع عليه سكان القرية ويقومون بتحديده والذي يتميز ببساطة التشكيل. أما فيما يخص إبراز واستمرارية المعالجات البصرية الواجب مراعاتها في تشكيل العناصر البنائية للقرية فهي تشمل على سبيل المثال لا الحصر:

١ - التفرد أو الانفراد ببعض الأوصاف للأشكال(Uniqueness).

٢ - بساطة التشكيل للعناصر الفذة وذلك لتسهيل طبع صورة خاصة بها.

٣ - استمرارية عناصر التشكيل العمراني لجميع أجزاء القرية.

٤ - وضوح نقاط الاتصال الحركي.

٥ - التفاضل في توجيه الحركة وتأكيد النطاق البصري للصورة الذهنية.

٦ - تأكيدا لإدراك الحسي بالتتابع الزمني لعناصر التشكيل العمراني، ومن خلال الأسماء والمعاني لعناصر القرية البنائية.

الصعوبات التي تؤثر في تكوين صورة ذهنية واضحة المعالم للعناصر البنائية التي يقوم بتصميمها أو ترميمها وتشمل أيضا على:

١ - عدم تكامل العناصر البنائية للقرية والتي تعزز بدورها من إعطاء صورة بصرية متكاملة.

٢ - اختلاط وتداخل العناصر البنائية دون تمييز لها، يمكن أن يعطي صورة بصرية مشوهة وغير متكاملة للمكان.

٣ - الحدود الضعيفة وعزلة بعض العناصر البنائية وخاصة الأعلام (Landmarks) وعدم التباين بين الأجزاء والعناصر المهمة تساهم في تشتيت الصورة الواضحة المعالم للقرية.

٤ - عدم الاستمرارية في العناصر البنائية للقرية وغموض بعضها يساهم في التقليل من أهمية بعض العناصر وتشويه الصورة الذهنية لها.

٥ - التشتيت عند نقط اتصال المسارات يقلل من فرص الإدراك الحسي لبعض العناصر البنائية للقرية.

٦ - عدم وجود طابع مميز للقرية يساهم في صعوبة التعرف على عناصر القرية ويقلل من فرص تكوين الصور الذهنية لها.

الخلاصة

من دراسة العديد من القرى وعناصرها العمرانية يمكن القول والحكم على الصورة الذهنية للقرية التقليدية بالاغتراب (Alienation). بدأ الاغتراب بتحول (Transformation) من اللاوجود إلى الوجود، حيث ظهرت عناصر جديدة بالبيئة المبنية مثل الطرق المعبدة والمباني الخرسانية للمنازل والمنارة للمسجد التي لم يكن لها وجود في القرية. كما يحدث تحول من الوجود إلى اللاوجود، وهو اندثار عناصر من العمارة إلى الأبد مثل القصبة أو المبنى التقليدي أي أن ما انهدم منها لا يمكن إعادته إلى صورته الأصلية، وتحول من الوجود إلى الوجود يتمثل بالترميمات والتعديلات على القصبات والمنازل والمساجد الموجودة الذي يصل إلى درجة التشويه في الشكل الأم. كما أن التحول من الوجود إلى الوجود يتمثل في إيجاد عناصر مبنية ذات أصول تقليدية، لكن وظيفتها أصبحت مختلفة كما هو الحال بالنسبة لبناء المجسمات المستوحاة من الحصون أو القصبات في البيئة التقليدية مثل مانراه من عناصر التراث في ساحات وميادين المدن والقرى في مرتفعات السروات.

وفي الفكر المعماري والعمراني المعاصر يرتبط مفهوم التحولات بمفهوم البنية (Structure) للعنصر الحضري التي يقوم بها معلم البناء في السابق والمعماري، أو المصمم الحضري أو المخطط العمراني في الوقت الحاضر، ويجريها على بعض عناصر القرية حسب قواعد وأصول البناء والتصميم والتخطيط بينما العلاقات التي تقوم بين عناصر القرية أثناء التصميم تشكل بنية أي "منظومة من العلاقات الثابتة في إطار بعض التحويلات" (أي التحولات التي تسمح بها قواعد وأصول البناء والعمارة والتخطيط). والواقع أن ما تتميز به البنية للعناصر الحضرية ليس ثباتها، بل كونها تعنى بالتحولات التي تشكل لحمتها وهويتها، والتي تتميز عن التحولات العشوائية (غير البنيوية) بكونها تخضع لقوانين هي قواعد التشييد وأسس التصميم.

ولعل تأثير شكل برج المراقبة والدفاع (القصبة أو الحصن) كمعطى للصورة الذهنية للقرية في جنوب غرب المملكة قد امتد تأثيره إلى تصميم شكل المآذن، وهذا يؤكد الرأي القائل إن أصل المنارة هو برج المراقبة منذ العهود الإسلامية المبكرة، وهناك مثال واضح

على ذلك وهو برج (مئذنة) قرية المخض في جنوب غرب أبها وامتد هذا التأثير في الآونة الأخيرة حيث نجد العديد من المآذن في عسير على شكل أبراج مربعة أو دائرية. وقد تأثر شكل المئذنة بصفة عامة بدرجة كبيرة بطريقة استخدام مادة البناء التي تختلف حسب المناطق في الإقليم الواحد الذي تقام فيه المئذنة. ففي أبها والمناطق التي حولها نجد أن الشكل الحديث للمآذن بالرقف وهو تقليد بناء متعارف عليه بعسير سواء من حيث بساطة صفه ورصفه بطريقة هندسية مبدعة أو من ناحية تضاد الألوان التي يسقطها علي أسطح واجهات المباني.

وأصبحت المنارات بعد ذلك سمة رئيسة من سمات المسجد وعنصرا معماريا بارزا في القرية يتفنن المعماريون في تصميمه. والمنارة على العموم أصبحت أحد عناصر بناء الصور الذهنية للقرية والتي برزت حديثا.

فالطابع المعماري والأشكال المحلية المألوفة تمثل عناصر أساسية في تأكيد الإحساس بالمكان للمقيم وللزائر، كما أنها مصدر استلهام للفنان والمعماري والمصمم الحضري والمخطط العمراني في الأعمال المعمارية الجديدة. فقد تساهم رؤية هذه الأشكال بإدخال راحة نفسية للمشاهد نتيجة لربطها بين الماضي والحاضر.

التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والتقنية وتوافر المصادر والمعلومات تجعل من النماذج التي كانت مقبولة في وقت ما نماذج غير ملائمة جزئيا أو كليا في وقت آخر، لذلك فإن الإبداع الفردي والدراسات والتصميمات السابقة يجب أن تعامل على أنها تجارب ومحاولات للاستجابة لتلك التغيرات وتقود للوصول إلى بيئة أفضل عند إعداد الدراسات والتصميمات اللاحقة لإعطاء صور ذهنية للبيئة العمرانية الجديدة.

يمكن الخلوص من ذلك إلى أن الصورة الذهنية هي تجارب متتابعة ووصف لأمثلة متكاملة مع بعضها البعض للعناصر البنائية للقرية ضمن علاقتها الملموسة والمدركة.

المراجـــع

[١] والى، طارق. "الجوانب الاجتماعية وعمران مدينة المحرق: الفريج نسق عمراني - اجتماعي للمدينة الخليجية." *ندوة العمارة الإسلامية التقليدية في الخليج العربي*. المنامة: جمعية المهندسين البحرينية، نوفمبر ١٩٨٦م.

[٢] فتحي، حسن. *العمارة العربية الحضرية بالشرق الأوسط*. محاضرة، بيروت: جامعة بيروت العربية، ١٩٧١م.

[٣] Abu-Ghazzeh, Tawfig M. "Vernacular Architecture Education in the Islamic Society of Saudi Arabia: Towards the Deuelopment of Authentic Contemporary built Tnuironment". *Habitat International*. V-1.21, No. 2 (1997), 229-253.

[٤] العسكر، فهد بن عبدالعزيز. *الصورة الذهنية: محاولة لفهم واقع الناس والأشياء*. الرياض: دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

[٥] القحطاني، عبد الله. *برنامج التراث العمراني في المنطقة الجنوبية*. الرياض: وزارة الشؤون البلدية والقروية، ١٤١١هـ.

[٦] Lang, Jon. "Understanding Normative Theories of Architecture: The Potential Role of the Behavioral Sciences". *Environment and Behavior*, Vol. 20, No. 5, (September, 1988).

[٧] Lynch, Kevin. *The Image of the City*. Cambridge: MIT Press, 1960.

[٨] Norberg-Schulz, Christian. *Intensions in Architecture*. Cambridge: The MIT Press, 1965.

[٩] Norberg-Schulz, Christian. "Meaning in Architecture." In: *Meaning in Architecture*. Jencks, Charled Baird, George (Ed.), New York: George Braziller, 1970.

[١٠] Norburg-Schulz, Christian. *Genius Loci; Towards a Phenomenology of Architecture*. Rizzoli: New York, 1980.

[١١] Nasar, Jack L. "Urban Design Aesthetics; The Evaluative Qualities of Building Exteriors". *Environment and Behavior*. Vol. 26, No. 3 (1994).

[١٢] Al-Bishri, Naif Saleh. "Environmental Changes in Al-Alkhalaf Settlement." *Unpublished Bachelor Thesis*, King Saud University, Abha Branch, Abha: Saudi Arabia, 1993.

[١٣] Curran, Raymond J. *Architecture and the Urban Experience*. New York: Van Nostrand Reinhold Company, 1983.

[١٤] آل زلفة، محمد بن عبد الله. *لمحات عن العمارة التقليدية في منطقة عسير*. الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٥هـ.

[١٥] السياري، أحمد بن صالح. *الباحة*. جدة: مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم)، ١٤١٥هـ.

[١٦] Atwah, Ali Yahya. "Identification and Understanding the Cultural Landscape of Arabia." *Unpublished Ph.D. Thesis*, University of Edinburgh, Edinburgh:United Kingdom, 1992.

[١٧] الحريري، الرفاعي، وهبي. *عسير: تراث وحضارة*. الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ.

[١٨] عسيري، أنور محمد خليل. "لمحة عن بعض المساجد الأثرية في عسير". *بيادر*، العدد الثالث، النادي الأولي بأبها (١٤١٠هـ)، ١٣٠ - ١٣٩.

[١٩] ابن صالح، محمد عبد الله. "عمارة المساجد في المناطق المعزولة: قرية آل الخلف، حالة دراسية". *مجلة جامعة الملك سعود (العمارة والتخطيط)*، المجلد ٨، (١٤١٦هـ)، ٤٥ - ٦٧ (باللغة الإنجليزية).

[٢٠] Abu-Ghazzeh, Tawfiq M. "Domestic Building and the Use of Space: Al-Alkhalaf Fortified Houses - Saudi Arabia," *Vernacular Architecture.*, Vol. 26, (1995), 1-17.

[٢١] عكاشة، ثروت. *القيم الجمالية في العمارة الإسلامية*. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م.

[٢٢] Lynch, Kevin. "The Image of the Environments". In: *Humanscape: Environment for People.* Stephen Kaplan and Rachel Kaplan (Ed.) North Scituate: Duxbury Press, 1978.

[٢٣] Higuchi, Tadahiko. *The Visual and Spatial Structure of Landscapes*. Cambridge: The Mit Press, USA, 1988.

[٢٤] Cullen, Gordon. *The Concise Townscape.* New York: Van Nostrand Reinhold Company, 1985.

[٢٥] Lynch, Kevin. *The Image of The City*. Cambridge: The MIT Press, USA, 1960.

[٢٦] Al-Soliman, Tarik M. "The Impact of the Surrounding Environment on People's Perception of Major Urban Environmental Attributes." *Journal of King Saud University*, (Architecture, Planning) Vol. 2, Architecture and Planning (1990), 43-60.

[٢٧] البراهيم، محمد حسين. "انتقادات العمارة الحديثة في المملكة العربية السعودية". *مجلة جامعة الملك سعود (العمارة والتخطيط)*. المجلد ٢ (١٤١٠هـ)، ٦٣-٨٠ (باللغة الإنجليزية).

[٢٨] Domosh, Mona. "Urban Imagery." *Urban Geography.* Vol. 13, No. 5 (1992).

[٢٩] Nakaba, Kenneth S. "Regionalism in Landscape Architecture." *Interchange*, 2, Pomona: College of Environmental Design, California State Polytechnic University, (1989).

[٣٠] Yang Bounge, and Brown Terry, J. "A Cross-cultural Comparison of Preferences for landscape Styles and Landscape Elements." *Environment and Behavior.* Vol. 14, No. 4 (July, 1992), 471-507.

The Elements of Built Form and Surrounding of Villages in the Highlands of South-Western Saudi Arabia Through a Century as A Sourcs of Image

Mohammed Eben Abdullah Eben Saleh

Professor, Department of Architecture and Building Sciences
College of Architecture and Planning, King Saud University
Riyadh, Saudi Arabia

(Received 7/5/1419; accepted for publication 13/11/1419)

Abstract. Traditional architecture continues to be a source of inspiration and an element of identity for most societies. It is an accumulation of continuous communal evaluation of original and creative achievements. So, the villages of the Sarawat highlands of southwest Saudi Arabia, like other settlements worldwide, posses physical elements that enhance their schemata. The study of these physical forms indicates that their role as an image motivator is effective in identifying the built and surrounding environment of these villages.

Several elements within the villages and their surroundings are considered effective as they are distinguished by considerable height and monumentality. The physical transformation includes changes in the function and the form of these elements which are being replaced by other structures of similar status. As a result of stopping the erection of traditional structures with traditional techniques, the existence of new elements started to emerge and replace the old image. It can be said that the need for such structures for image purposes is required. The traditional structures had and still have a distinctive role in facilitating the identification of places in the built environment as well as the surrounding areas of these villages. As a result of stopping the erection of such traditional structures in the newly built residential quarters, in addition to the similar of its architectural characters and urban patterns in their planning and design schemata, the erection of distinctive elements to enhance the possibility of getting new schemata in those newly built environments is necessary. Thus, the role of such structures in creating identity for the place inevitable.

The study asserts the legitimacy of introducing distinctive elements to facilitate the identification of the place. The research discusses the reasons behind the emergence of such structures in the villages of the highlands of Southwest Saudi Arabia, their environmental cognition of the built and surrounding environment.